حرف

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

العدد 139

الأربعاء

26 أغسطس 2026

13 ربيع الأول 1448

20 مسرى 1742

المحرر العام: محمد الباز

ملحق خاص

المجد واللعنة

كيف خان نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»؟

تحقيق يكتبه محمد الباز

عرفة

ننشر الفصل الأخير من الرواية

أولاد حارتنا.. المجد واللعنة

كان علاء الشامى قد سبقنى إلى كلية الإعلام.

تزاملنا كتفًا بكتف فى رحلتنا لحفظ القرآن فى كتاب الشيخ عبدالجواد غلوش، انحاز قليلًا إلى صفوف السلفيين ثم تحرر منهم، وبقيت أنا- وطوال حياتى- فى المنطقة الوسط، لا أتعصب ولا أتهاون.

كنت أجاهد فى الثانوية العامة للحاق به فى كلية الإعلام، وفى واحدة من إجازاته التى تزامنت مع عيد الأضحى، جلسنا نتحدث.

لأول مرة سمعت منه اسم الدكتور سليمان العطار الذى كان يدرس مادة الأدب العربى فى السنة الأولى لطلاب الكلية، وقد تتلمذت عليه بعد ذلك.

كان ما قاله علاء عن العطار حقيقيًا، فقد كان أستاذًا ومترجمًا ومعلمًا وفيلسوفًا، فتح لنا الباب للتفكير بحرية، لم أشعر أنه مجرد «خوجة» مثل الآخرين.

حدثنى علاء عن عشق سليمان العطار لنجيب محفوظ، وجاء عرضا على أن الدكتور سليمان قام بتصوير عدة نسخ من رواية «أولاد حارتنا» ومنحها لمن يريد قراءتها، وكان علاء واحدًا منهم.

كانت «أولاد حارتنا» فى هذا الوقت بالنسبة لى مثل الأسطورة المخفية، سمعت عنها كثيرًا، وقرأت كلامًا كثيرًا تناولها بالنقد فى كتابات الإسلاميين التى كنت غارقًا فيها حتى أذنى خلال تلك الفترة، ورغم الانتقادات الكثيرة الموجهة إليها، إلا أننى كنت أشعر أنها لا يمكن أن تكون كذلك، ومبررى فى ذلك أن نجيب محفوظ لا يمكن أن يكون هو الرجل الذى يتحدث عنه الإسلاميون، كنت أعرفه من وقتها من صوره فقط، ورسمت له صورة الرجل الطيب الزاهد الذى لا يمكن أن يقترف إثمًا فى حق أحد، فما بالى وهم يقولون إنه ارتكب الإثم فى حق الله ورسله.

طلبت النسخة من علاء، تمنع فى البداية، تمنع من يملك كنزًا لا يريد التفريط فيه، وعدته أن أعيدها إليه فى اليوم التالى، بعد أن أكون قرأتها، سخر منى فالرواية كبيرة، ولا يمكن أن أنتهى منها فى يوم واحد، لكننى كنت واثقًا أننى أستطيع ذلك.

بعد دقائق كانت رواية «أولاد حارتنا» بين يدى.

أخذتها منه بلهفة شديدة، انتهينا من صلاة العشاء، وكنت أضع الرواية أمامى وأنا أصلى، فقد حرصت عليها حرص من فاز بجائزة لا مثيل لها.

دخلت حجرتى فى أول الليل، وكنا يوم وقفة العيد، أتيت بجهاز الكاسيت الصغير الذى كان ملاذى فى الليالى الطويلة، وضعت فيه شريط أغنية «القلب يعشق كل جميل» التى كتبها بيرم التونسى ولحنها رياض السنباطى وغنتها أم كلثوم، وفتحت الرواية على صوت الست وهى تشدو: «القلب يعشق كل جميل/ وياما شفتى جمال يا عين»، وكلما انتهت الأغنية بدأتها من جديد وأنا أقلب صفحات الرواية، ولم أشعر إلا وأذان الفجر يقتحمنا نحن الثلاثة نجيب محفوظ وأم كلثوم.. وأنا.

فى صباح يوم العيد أعدت الرواية مرة أخرى إلى علاء، ولما سألنى عن رأيى فيما قرأت، قلت له: هذا ليس أدبًا.. هذا وحى من الله.

تعجب علاء من كلمتى، قرأت فى نظرته شعورًا بأننى لست طبيعيًا، فأى وحى هذا الذى أتحدث عنه، فقلت له: أليس الإلهام هو نوع من الوحى يخص الله به عباده، ما قرأته ليس إلا إلهامًا قذفه الله فى قلب نجيب محفوظ.. هذا الإبداع أكبر دليل على وجود الله.

منذ هذه الليلة تربطنى بـ«أولاد حارتنا» علاقة خاصة، فرغم أننى قرأت كل ما كتبه نجيب محفوظ، وقرأت لغيره كثيرًا، إلا أننى لم أجد ما فعله فيها لا عنده ولا عند أحد غيره.

وبدأت من يومها أجمع ضمن أرشيفى كل ما قاله نجيب محفوظ عن روايته، وكل ما كتبه الآخرون عنها، وكلما تراكم الأرشيف لدىّ كنت أرى أن أحدًا لم يستطع أن يحيط بهذه الرواية وأسرارها، لكننى خلصت إلى نتيجة خاصة بى وهى أن «أولاد حارتنا» تحديدًا، ودونًا عن أعمال نجيب كلها، هى الرواية التى تمثل مجده ولعنته.

لن يخرج ما سأكتبه هنا عن هذه الثنائية، فقد منحت الرواية كاتبها مجده ولم يكن غريبًا أن تكون من بين مبررات فوزه بجائزة نوبل للآداب فى العام ١٩٨٨، وفى الوقت نفسه فهى تمثل لعنته الكبرى التى طاردته منذ اللحظة التى نشرها فيها بجريدة الأهرام مسلسلة فى العام ١٩٥٩ وحتى بعد موته، وكانت قد تسببت فى محاولة اغتياله فى أكتوبر من العام ١٩٩٤.

قد تكون لدينا هنا ثنائية أخرى يمكن أن نقرأ رواية «أولاد حارتنا» على هامشها، فهى الرواية الملعونة باعتبارها خارجة عن الأديان وتدعو إلى الإلحاد كما يقول معارضوها وناقدوها، وهى أيضًا وفى الوقت نفسه رواية غارقة فى الإيمان وداعية إليه، كما يرى نجيب محفوظ نفسه، ويرى كل من أيدوه ودافعوا عن روايته.

ما يمكن أن يميز كلامى هنا أنه أكثر صراحة من كلام الآخرين.

فلدىّ رأى واضح فى «أولاد حارتنا» وهو رأى كونته بعد سنوات من القراءة والمتابعة والبحث والفحص والتدقيق، وهو أن نجيب محفوظ خان روايته قبل أن يخونها الآخرون، تعامل معها تعامل الموظف، وهى صفة لا يمكن أن ينكرها أحد أو يستبعدها ونحن نتعرض لنجيب الكاتب والأديب والظاهرة.

والواقع أن نجيب محفوظ خان روايته «أولاد حارتنا» أكثر من مرة.

يمكنكم أن تعتبروا خيانات نجيب لروايته خيانات مشروعة.. لكننى لا أراها كذلك أبدًا.

كانت الخيانة الأولى عندما رضخ نجيب محفوظ لرغبة الرقيب فى عدم نشر روايته فى كتاب داخل مصر.

وقائع ما حدث يرويها لنا نجيب محفوظ بنفسه، وقد تحدث بما جرى فى مواضع ومناسبات مختلفة، وقد وقفت على الروايات المتعددة، ومن بينها استقر رأيى على هذه الرواية.

فعندما أثارت الرواية قلقًا لدى رجال الدين، وبدأت الكتابات الصحفية تتناولها بالنقد والاعتراض على تجاوزها فى حق الأنبياء زاره الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبدالناصر، وكان رجلًا فى غاية اللطف- كما يصفه محفوظ- وكان قد سبق لهما العمل معًا فى الرقابة، الخولى فى رقابة النشر، ونجيب فى الرقابة على المصنفات الفنية.

قال الخولى لنجيب إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر ككتاب، لأنه فى حال صدوره ستحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن أن تنشر الرواية خارج مصر، واقترح الخولى ترتيب لقاء مع عدد من شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية، رحب نجيب بالاقتراح، فاتفق معه أن يحضر إلى مكتبه فى يوم محدد، وسوف يدعو هو بعض شيوخ الأزهر، لإجراء المناقشة، وفى الموعد المحدد ذهب محفوظ إلى مكتب الخولى فلم يجد أحدًا، فقال له الخولى إنه سوف يتصل به لإتمام اللقاء المقترح عندما يتجمعون.

لكن هذا الاجتماع لم يحدث أبدًا.

استجاب نجيب لرغبة صبرى الخولى، وقرر عدم نشر الرواية فى كتاب داخل مصر، وهو بالنسبة لى استسلام لم يكن له مبرر.

وإن كان يخفف من هذه الخيانة أن الظرف العام لم يكن فى صف نجيب، ولم يكن هناك ناشر يجرؤ على تحدى العاصفة ويقدم على نشر الرواية، ويبدو أن ناشر نجيب التاريخى والتقليدى «آل السحار» تحفظوا على النشر، وهو ما أزعجه وأحزنه.

يمكننا أن نستعين هنا بشهادة الكاتب والروائى سليمان فياض التى نشرتها مجلة الهلال فى عددها الصادر فى ديسمبر ٢٠٠٥، وكان عددًا تذكاريًا عن نجيب اختارت له عنوان «عش ألف عام» وحصل على هذه الشهادة يحيى وجدى.

يقول فياض: كنت أعمل فى مجلة «الشهر» التى كان يصدرها الكاتب المسرحى سعد الدين وهبة مع جلال السيد ومحفوظ عبدالرحمن، وكان بها باب كنت مشرفًا عليه بعنوان «شهريات» ننشر فيه متابعات للنقد وللفن التشكيلى وللمسرح، وما يصدر من روايات وأشعار وما يعقد من ندوات علمية فى جمعيات مصر، فتشجعت وكتبت كلمة لا أستطيع أن أسميها مقالة فى صورة متابعة نقدية عن «أولاد حارتنا» التى لم تطبع بعد فى كتاب.

كشف فياض فى كلمته أن نجيب محفوظ يحاول أن يقدم رؤية للتاريخ البشرى، نفاذًا من عالم الأسطورة إلى عالم الدين إلى عالم العلم، وبالفعل نجح فى أن يقدم فى روايته تصورًا أدبيًا مجازيًا لتطور التاريخ البشرى، وكأنه فيلسوف يكتب أدبًا أو أديبًا يكتب فلسفة.

نشر فياض متابعته فى مجلة الشهر، ولم ينتبه إليها أحد، حتى جلس مع نجيب محفوظ ذات عصر بمقهى ريش، ولم يكن أحد قد أتى بعد، وسأله: هل ستصدر مكتبة مصر هذه الرواية، فبدا على نجيب الاكتئاب، وقال: لا أظن.

يقول فياض: لم أعرف هل اعتذر آل السحار عن عدم نشرها أم لا، قلت له على أى حال لدى الناشر إذا رفضت أى دار نشر طبع الرواية، فقال لى: من؟ قلت له: دار الآداب لصاحبها الدكتور سهيل إدريس رئيس تحرير مجلة الآداب، الناقد وكاتب القصة، وسارعت فى الحال بالاتصال تليفونيًا بسهيل إدريس، وقلت له: هل أنت مستعد لنشر «أولاد حارتنا»، فقال لى بالحرف الواحد: سأكون بالقاهرة من أجل الرواية بعد سبعة أيام، أرجوك أطلب من نجيب محفوظ ألا يتعاقد مع ناشر آخر عليها، وبالفعل جاء سهيل إدريس، ودبرت له اللقاء مع نجيب محفوظ ولا أدرى على ماذا اتفقا ولا أين التقيا.

وينهى فياض هذه الشهادة بقوله: علمت بعد ذلك من رجاء النقاش أن نجيب محفوظ حصل على أربعة آلاف جنيه نظير الرواية من سهيل إدريس الذى أصدرها فى أكثر من عشرين طبعة لم يتقاض محفوظ عنها شيئًا، وهو كعادته لا يطالب بحقوقه.

رغم دقة رواية سليمان فياض عن نشر رواية «أولاد حارتنا» فى بيروت، إلا أن لدىّ رواية أخرى سمعتها من الناقد الكبير صلاح فضل، وهى الرواية التى قالها لى على الهواء مباشرة.

قال لى فضل: عندما كنت فى بيروت فى دعوة عشاء خاصة، قابلت الدكتور سهيل إدريس صاحب دار الآداب اللبنانية، وسألنى: هل تعرف نجيب محفوظ جيدًا؟

أجابه فضل: نعم أعرفه.

فقال سهيل: احمل له رسالة منى أننى أريد أن أنشر طبعة من رواية «أولاد حارتنا» بموافقة موقعة منه شخصيًا، وأنا مستعد أن أدفع له أى مبلغ يريده، بل يمكننى أن أرسل له معك شيكًا على بياض ويضع فيه المبلغ الذى يحدده.

كان سهيل إدريس يطبع رواية «أولاد حارتنا»- كما يقول فضل- بالفعل دون إذن من نجيب الذى رفض أن يطبعها فى القاهرة بعد أن تعهد لعبدالناصر بذلك، وكانت نسخ الرواية المطبوعة فى بيروت تباع على أرصفة القاهرة دون أن يملك نجيب ما يمكنه من منعها، بل إن الدار قررت أن تطبع الرواية حتى لو لم يوافق نجيب على ذلك، وأغلب الظن أنها كانت تسعى وراء الربح أكثر من أى شىء آخر.

وعندما عاد صلاح فضل إلى القاهرة، ذهب إلى نجيب محفوظ فى واحدة من ندواته، وبعد أن انتهى اختلى به، وأبلغه برسالة سهيل إدريس.

احتد نجيب على صلاح، وقال له: لا تحدثنى عن هذه الرواية أبدًا، فقد أساءت إلى أكثر مما أحسنت.

معنى ذلك وأنا أميل إلى رواية صلاح فضل أكثر أن نجيب محفوظ لم يكن موافقًا على طباعة «أولاد حارتنا» فى كتاب لا داخل مصر ولا خارجها، وهو ما اعتبره الخيانة الكاملة فى حق الرواية.

وقد تسأل عما كان يجب أن يفعله نجيب محفوظ فى مواجهة السلطة الدينية والسياسية التى قررت عدم طباعة الرواية فى كتاب؟

أقول لك: كان لا بد أن يصمد ولو قليلًا، أن يتحفظ على المنع، يرفضه، يقول إنه من حقه أن يصدر روايته فى كتاب، لكنه حتى لم يفعل ذلك، بل غضب ممن فعلوه.

الخيانة الثانية فى الشكل الذى دافع به نجيب محفوظ عن الرواية فى أكثر من موضع وأكثر من حديث منشور له من الناحية الدينية وحدها.

لقد وقعت الرواية ضحية للصراع الصحفى بين جريدة «الأهرام» التى انفردت بالرواية، وجريدة «الجمهورية» التى كانت تعتبر نفسها منافسة شرعية لجريدة هيكل التى يخصها عبدالناصر بأخبار وانفرادات يحرم منها الصحف الأخرى وعلى رأسها جريدة «الجمهورية» التى صدر ترخيصها باسمه.

يضعنا نجيب محفوظ فى قلب ما حدث بنفسه.

فى حديثه المطول مع رجاء النقاش الذى نشره فى كتابه «نجيب محفوظ.. صفحات من مذكراته وأضواء على أدبه وحياته» يقول نصًا: بدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية، ومرت حلقاتها الأولى دون أن تظهر أى ملاحظات عليها، فالجزء الأول من الرواية لا يسبب أى مشاكل، ولكن الأزمة بدأت بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» خبرًا يلفت فيه كاتبه النظر إلى أن الرواية المسلسلة التى تنشرها جريدة «الأهرام» فيها تعريض بالأنبياء، بعد هذا الخبر المثير بدأ البعض ومن بينهم أدباء للأسف، فى إرسال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة ومشيخة الأزهر، بل وإلى رئاسة الجمهورية، يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمى إلى المحاكمة، وبدأ هؤلاء يحرضون الأزهر ضدى على أساس أن الرواية ترمز إلى الأنبياء، وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لى هو الأستاذ مصطفى حبيب، الذى كان يعمل سكرتيرًا لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيل نيابة، وهو الذى أخبرنى أن أغلب العرائض التى وصلت إلى النيابة أرسلها أدباء.

يرصد محمد شعير كيف بدأ الهجوم على رواية «أولاد حارتنا»، وكيف أنه لم يكن من جريدة «الجمهورية» كما يذهب نجيب محفوظ، ولكنه بدأ من مجلة «المصور».

فى كتابه «أولاد حارتنا.. سيرة الرواية المحرمة» يذهب إلى أن المؤكد أن أول هجوم معلن على

سليمان العطار

حسن صبرى الخولى

صلاح فضل

لم يكن موافقًا على طباعة «أولاد حارتنا» فى كتاب لا داخل مصر ولا خارجها

رضخ نجيب محفوظ لرغبة الرقيب فى عدم نشر روايته فى كتاب داخل مصر

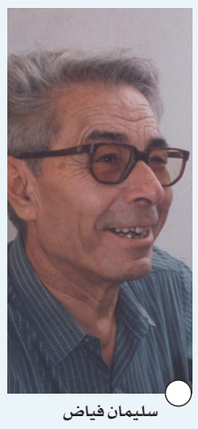

سليمان فياض

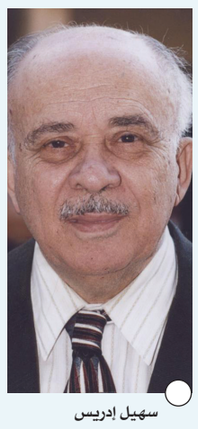

سهيل إدريس

أولاد حارتنا.. المجد واللعنة

الرواية كان فى مجلة «المصور» فى رسالة أرسلها قارئ يدعى محمد أمين إلى الشاعر صالح جودت محرر باب «أدب وفن» فى ٨ ديسمبر ١٩٥٩.

قال القارئ فى رسالته: إن نجيب محفوظ يحيد ويجانب كل أصول القصة، فكتابته الأخيرة لا هى رمزية ولا هى واقعية، ولا هى خيال، ولا تنطبق على أى قالب معروف.

ويضيف أمين: جاء محفوظ ليتحدى معتقدات راسخة، ولهذا يتعذر على كائن من كان حتى ولو محفوظ نفسه أن يقدمها بمجرد كتابة قصة، التستر وراء الرموز أضعف قضية نجيب محفوظ فى مجتمع يجل الدين بطبيعته.

رد صالح جودت على رسالة القارئ بقوله: لا أستطيع أن أحكم على القصة الأخيرة لمحفوظ، الذى لا شك أنه يعد قصاص الطليعة عندنا اليوم، فإذا كان قد نحا فى قصته الجديدة نحوًا جديدًا غير ما تعودناه فى روائعه السابقة، فالحكم فى ذلك لمن قرأوا القصة.. والباب مفتوح لمن قرأوا قصة محفوظ.

لم يحرض صالح جودت على الرواية إذن، لكن الرسالة التى نشرها نبهت المتربصين بنجيب محفوظ نفسه.

ويدلل شعير على ما يتبناه من رأى فى مسألة بداية الهجوم على «أولاد حارتنا» من مجلة «المصور» وليس من «الجمهورية»، يقول: لم تهاجم «الجمهورية» الرواية على عكس ما حكى محفوظ، بل إن يوسف السباعى كان من أوائل المدافعين عنه، عندما نشر مقالًا فى يومياته الصحفية بعنوان «نجيب محفوظ ولوم القراء» فى ٢٨ ديسمبر ١٩٥٩، أى بعد عشرة أيام من هجوم «المصور»، وبعد اكتمال نشر الرواية فى «الأهرام».

هاجم السباعى فى يومياته رسالة القارئ المجهول وصالح جودت باعتباره ناشر الرواية، وقال: وجدنا الرسالة تحمل على نجيب محفوظ- رغم تقدير القارئ له- ورغم أن الأستاذ صالح جودت أعفى نفسه من مسئولية الخطاب، وأبدى إعجابه وتقديره لنجيب محفوظ، فأنا لا أعفيه أبدًا مما جاء فى الرسالة، إلا إذا كان هو يعفينى من مسئولية نشر خطاب قارئ يسبه فيه.

ويختم «السباعى» يومياته بقوله: كان أولى بصاحب الرسالة إذا لم يقصد بها التشنيع الذى عاونه فيه الزميل صالح جودت أن يرسل الرسالة إلى نجيب محفوظ نفسه، إذا كان المقصود أن يبدى له رأيه فى القصة.

قد يكون اختلط الأمر على نجيب محفوظ، فأشار إلى أن بداية الهجوم على «أولاد حارتنا» كان من خبر جريدة «الجمهورية»، ويمكننا أن نرجع هذا إلى عامل السن، لكننى لا أتبنى اجتهاد محمد شعير- رغم تقديرى له- فى نفى التهمة عن جريدة «الجمهورية» والعاملين فيها، فقد أشار نجيب إلى شكاوى عديدة تقدم بها صحفيون وأدباء إلى النيابة العامة ورئاسة الجمهورية تحرض على الرواية وعلى كاتبها، وليس بعيدًا أن يكون من بين هؤلاء عاملون بجريدة «الجمهورية» الذين غضبوا ما فى ذلك شك من انفراد «الأهرام» بنشر رواية نجيب، فحاولوا إفساده وتشويهه والشوشرة عليه، ربما ليس لإدانة نجيب نفسه، ولكن لإدانة هيكل والإساءة إليه وتقليب عبدالناصر ضده.

لكن كيف وصلت الرواية إلى هيكل فى «الأهرام».

هنا أكثر من رواية.

الأولى صاحبها هو نجيب محفوظ نفسه، يحكى لرجاء النقاش عن ظروف كتابة «أولاد حارتنا» ونشرها، يقول: «أولاد حارتنا» هى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو وسبقتها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة، ففى عام ١٩٥٧ شعرت بدبيب غريب يسرى فى أوصالى، ووجدت نفسى منجذبًا مرة أخرى إلى الأدب، وكانت فرحتى غامرة عندما أمسكت بالقلم مرة أخرى، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة، وكانت كل الأفكار المسيطرة علىّ فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة، فجاءت فكرة «أولاد حارتنا» لتحيى فى داخلى الأديب الذى كنت ظننته قد مات.

هذا عن الكتابة، فماذا عن النشر؟

يحكى «محفوظ»: كنت أرفض أسلوب النشر المسلسل للروايات، لكن فى سنة ١٩٥٧ حصلت على جائزة الدولة، وهى جائزة قديمة أخرى غير جائزة الدولة الحالية، والتى تأسست اعتبارًا من عام ١٩٥٨، وكانت قيمتها المالية ألفى جنيه مصرى، وحصل عليها فى نفس العام الدكتور محمد كامل حسين عن روايته «قرية ظالمة»، وقد ضاع مبلغ الألفى جنيه بعد ذلك فى عملية نصب تعرضت لها، حيث دفعتهما لشراء فيلا وهمية على النيل، ولمناسبة حصولى على الجائزة وتكريمًا أقام إحسان عبدالقدوس حفلًا فى منزله القديم الكائن بشارع قصر العينى، ودعا إليه عددًا كبيرًا من الأدباء والصحفيين على رأسهم كامل الشناوى.

ويضيف «نجيب»: فى حفل التكريم الذى أقامه إحسان عبدالقدوس اقترب منى على حمدى الجمال مدير تحرير الأهرام فى ذلك الوقت، وقال لى: «إنه يكلمنى باسم الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس التحرير، وإنه يريد منى رواية لتنشر فى الجريدة على حلقات مسلسلة، لم أكن بدأت فى كتابة رواية (أولاد حارتنا)، وبالتالى اعتذرت بأنه ليس لدى الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت الجمال بأن أول رواية أكتبها سأرسل بها إلى الأهرام، وانتهيت من كتابة رواية «أولاد حارتنا» فى شهر إبريل ١٩٥٨، حيث استغرقت كتابتها سنة (نجيبية)، حيث تبدأ الكتابة عندى من شهر أكتوبر وتنتهى فى شهر إبريل، وتذكرت بعد أن انتهيت من الرواية الوعد الذى قطعته على نفسى، فاتصلت بالأستاذ على حمدى الجمال، واتفقنا على موعد، وذهبت إليه بأوراق الرواية التى قرأها وأعجب بها وصرح بنشرها دون أى ملاحظات، ويبدو أن الأستاذ الجمال قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية يقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات».

هنا لا يظهر هيكل على الإطلاق فى مسألة النشر، لكنه يظهر فى رواية أخرى تقاطع معها هيكل نفسه حيث عارض نجيب فيما قاله، وأعتقد أن الحكاية لا بد أن تُروى من جديد.

تحدث هيكل إلى يوسف القعيد فى كتابه «محمد حسنين هيكل يتذكر.. عبدالناصر والمثقفون والثقافة» عما جرى.

يقول «هيكل»: نجيب محفوظ أعطى أولاد حارتنا لعلى حمدى الجمال، كان نجيب محفوظ يزوره باستمرار فى مكتبه، وكان على الجمال مدير تحرير الأهرام، وقد أعطاه الرواية فى ١٩٥٩، على لم يقرأ الرواية، لكنه قال لى إن نجيب محفوظ وهو يعطيها له طلب منه قراءتها بشكل جيد وبعناية، أضاف الجمال: يبدو أن فى الرواية لغمًا ما، أخذت الرواية وقرأتها، أحضرتها معى إلى البيت، لأن جو المكتب قد لا يساعدنى على قراءة الرواية، وأدركت مغزى تحذير نجيب محفوظ لعلى حمدى الجمال.

بعد أن قرأ هيكل الرواية، أخذ قراره الفورى بالنشر.

يقول: استقر رأيى على النشر، تصورت منذ البداية أن بعض رجال الدين قد يحاولون وقف نشرها، لكل هذا قلت: سأنشر هذه الرواية بصورة يومية، وكانت أول مرة تنشر فيها رواية يومية، ولم أجد سببًا يدعونى لسؤال جمال عبدالناصر قبل النشر، فهذا عملى وأنا أمارسه، وكنت متأكدًا أن أحدًا خاصة من رجال الدين لن يتمكن من التنبه لأهمية الرواية إلا متأخرًا، وهذا ما جرى فعلًا عندما نشرت الحلقة السابعة عشرة، خلال النشر تحرك رجال الأزهر وأطلقوا طلقاتهم، الضجة قامت والدولة دخلت فيها ونحن كنا قد وصلنا إلى الحلقة العشرين.

ويكشف هيكل عن إحساسه بالرواية، فقد كان يعرف ما سيجرى، أو على الأقل كان لديه تقدير لبعض ما سيحدث.

لنسمعه وهو يقول: كان عندى بعض القلق لكننى لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى هذا المدى الذى وصلت إليه، قلت نعمل تجربة جديدة فى النشر، حتى نرى إن كانت الرواية ستشد القارئ أم لا، من خلال النشر بهذه الطريقة الجديدة كنا ننشرها فى الصفحة السابعة، أكثر قليلًا من ثلث صفحة، بعد الحلقة السابعة عشرة وحتى الحلقة العشرين انقلبت الدنيا، والأزهر أصدر بيانات.

بعد أن أثار نشر الرواية الضجة التى توقعها هيكل، تحدث معه الرئيس عبدالناصر، سأله: إيه الحكاية؟

فرد عليه: أنا كنت مدركًا لكل المحاذير قبل النشر، لكن هذه رواية لنجيب محفوظ، وعلى أى حال سوف ينتهى النشر خلال أيام.

يستكمل هيكل شهادته على ما جرى، يقول: ثم جاء قرار الأزهر بعد ذلك، وانطبق القرار على طبعها فى كتاب وليس على النشر مسلسلًا فى الأهرام، الذى كان قد تم، ولم نكن نحن طرفًا فى قرار الأزهر، ولم تكن لنا صلة به، وفى حدود علمى فإن الدكتور سيد أبوالنجا هو الذى اتصل بنجيب محفوظ من أجل نشر الرواية فى بيروت، لأن دار المعارف كان لها فرع هناك، وكانت لها صلات بدور نشر لبنانية كثيرة، وكانت تابعة للأهرام.

يمكننا أن نستكمل ما جرى من عند نجيب محفوظ الذى كانت لديه روايته.

يقول: عندما نشرت الرواية على صفحات الأهرام على مسئولية الكاتب محمد حسنين هيكل أخبرنى أن هناك انزعاجًا بسبب ذلك فى الرئاسة، وأن الرئيس حدثه، وقال لى هيكل: إحنا بقى عايزين إيه؟ فيه مشكلة والرئاسة مش عاجبها، مش عايز كل أسبوع زى ما بنعمل، فنعملها يوم ورا يوم عشان نخلص، ونشروها بالفعل فى حلقات بشكل يومى.

هنا ارتباك فى رواية نجيب محفوظ، فالمفروض أن النشر جرى بشكل يومى من البداية، وليست عندما اعترضت الرئاسة وتحدث جمال عبدالناصر مع هيكل.

لكن المؤكد أن عبدالناصر تدخل لمنع نشر الرواية فى كتاب حتى لا تزيد المشاكل، وهو ما أثبته نجيب محفوظ، بقوله: أرسل لى الرئيس عبدالناصر مندوبه الشخصى حسن صبرى الخولى، وطلب منى ألا يصدر الكتاب فى مصر، ولو هعمله كتاب ميطلعش فى مصر دلوقتى.

من بين ما أكده هيكل وهو يتحدث عن نجيب محفوظ أنه لم يقرأ جميع أعماله الروائية والقصصية، لكنه قرأ ما اعتبره أهمها، أو ما نشرته الأهرام منها.

ويثبت أيضًا أنه لم يفكر أحد فى اعتقال نجيب محفوظ فى أى وقت من الأوقات.

أولًا: لأن جمال عبدالناصر كان يعرف قيمة وقدر نجيب محفوظ، ويعلم أنه يستطيع أن يعاتبنى على بعض الأشياء التى يكتبها نجيب وغيره من كتاب الأهرام.

وثانيًا: لأننى كرئيس تحرير لم أكن أسمح بذلك أبدًا، لأننى أرى دور رئيس التحرير يتخطى مجرد قدرته على تجنيد الكُتاب المهمين وإدارة الجريدة، دوره الأهم هو حماية الجريدة وكل كتابها، ولم أقبل أبدًا أن يتجاوز أحد أو يؤذى محررًا فى الأهرام، وكان الجميع يعلمون أن من يريد التحدث مع أى شخص فى الأهرام بخصوص أى أخطاء أو مشاكل، فعليه أن يتحدث مع رئيس التحرير فقط.

ويضيف «هيكل»: وبعيدًا عن «أولاد حارتنا» فكل أعمال محفوظ النقدية مثل «اللص والكلاب- السمان والخريف- ميرامار» نشرت فى الأهرام وأنا رئيس تحرير وفى عصر جمال عبدالناصر، ولم تحذف منها كلمة، وأعتقد أن جائزة نوبل التى تحصّل عليها محفوظ كانت على أعمال نقدية، نشرت كلها فى الأهرام.

هنا يمكننا أن نمسك بما يشبه الاشتباك بين هيكل ونجيب محفوظ.

فعندما نشر جمال الغيطانى كتابه «نجيب محفوظ يتذكر» وجد فيه هيكل ما يزعجه.

قال «نجيب»: لم ألتق عبدالناصر فى لقاءات خاصة، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، طلعت وسلمت عليه ونزلت، المرة الثانية ١٩٥٧، كان هناك عدد من الأدباء العرب التقى بهم، وكنت أحد الذين ذهبوا إلى اللقاء، المرة الثالثة كانت فى الأهرام عندما زاره، كان يتحدث إلى كل شخص.

قال لى عبدالناصر: «ازاى ناس الحسين بتوعك، بقالنا زمان ماقريناش لك قصة».

هيكل قال له: لا ده بكره طالعة له قصة.

كنا يوم خميس.

هيكل قال: «نعمل إيه؟.. ما هى قصصه تودى فى داهية».

عبدالناصر قال له: «لا تودى رئيس التحرير».

يعلق «هيكل» على ما قاله محفوظ فى حديثه الطويل مع يوسف القعيد، يقول: هذه الرواية عمليًا غير ممكنة، وفضلًا عن أن الأستاذ جمال الغيطانى كتب عن أقوال للأستاذ نجيب محفوظ من الذاكرة، فالرواية كما نشرت غير معقولة لسبب أساسى أنها لا تتفق مع سلوكى مع عبدالناصر ولا نوع علاقتى به.

ويضيف «هيكل»: «قال نجيب محفوظ إن عبدالناصر قال له: إننا لم نقرأ لك شيئًا، من الممكن أن يكون هذا صحيحًا، لكن أن أقول لعبدالناصر إننا سنقرأ له نصًا يودى فى داهية، فهذا معناه إننى أقول لجمال عبدالناصر فى مواجهته، وفى حضور جمع كبير من الناس وعلنًا، إنه من الممكن أن يذهب كاتب فى داهية فى ظل حكمه بسبب قصة أدبية، لو كنت قلت ذلك فمعناه أننى أسىء إلى جمال عبدالناصر وإلى نظامه، وأكثر من ذلك أننى أسيئ إلى نفسى ولعلاقتى بجمال عبدالناصر، هل من المعقول أن أرضى لنفسى، وأن أرضى لجمال عبدالناصر مثل هذا الموقف، والتداعيات التى يمكن أن تخرج منه ومن الصعب حسابها؟، هل أقول لجمال

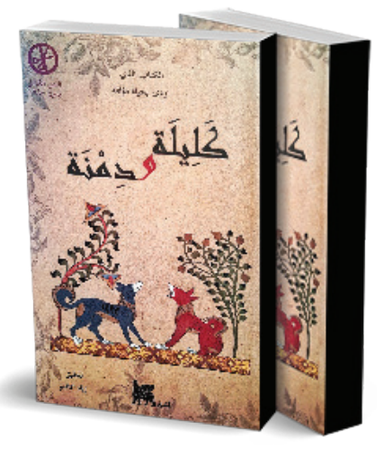

المؤكد أن عبدالناصر تدخل لمنع نشر الرواية فى كتاب حتى لا تزيد المشاكل

التستر وراء الرموز أضعف قضية نجيب محفوظ فى مجتمع يجل الدين بطبيعته

رجاء النقاش

أولاد حارتنا.. المجد واللعنة

عبدالناصر يوم زيارته إلى الأهرام وعلى مسمع من جميع مثقفى مصر إن رواية نجيب محفوظ القادمة «تودى فى داهية»؟ هل أقول هذا لجمال عبدالناصر؟ هل أقلل من نفسى وفى حضور الكتاب الذين يعملون معى فى الأهرام؟».

ويضيف «هيكل»: «وحتى لو قلت أنا هذا الكلام، أى مع فرض أننى قلت هذا الكلام، فهل يرضى الرئيس جمال عبدالناصر أن يقول لى وفى هذا الجمع إن اللى يروح فى داهية هو أنا وليس نجيب محفوظ، الكلام جميعه اعتراف ضمنى أن هناك داهية أو ليمان يمكن أن يروح فيهما من يجرؤ على الكتابة بطريقة لا ترضى السلطة، هذا كلام لا يمكن أن يكون قد قيل، وأعتقد أن رواية الأستاذ نجيب محفوظ تظهر التباسًا فى الحقائق، وأظن أن هناك من حكى لنجيب شيئًا عما جرى فدخل الأمر فى رأسه، وكرر الحكاية وقالها أكثر من مرة يومًا بعد يوم، جمال عبدالناصر فى هذا اللقاء كان مهتمًا بأن يستمع بأكثر مما يتكلم، وأظن أنه تكلم بعد المقدمة التى قدمت بها المثقفين له، كان قد طلب أن يستمع لكل التيارات، وجميع التيارات تكلمت، واستمع للجميع باهتمام وناقش كثيرًا وبقى فى الأهرام وقتًا أكثر مما كان مقررًا من قبل».

وراء كلام هيكل ما وراءه بالطبع، فبالرغم من أن الكاتب الكبير تحدث كثيرًا- ربما بأكثر مما ينبغى- فى أحاديثه وحواراته وكتبه وحلقاته التليفزيونية، إلا أنه كان يخفى كثيرًا من التفاصيل، لا يريد أن يفصح عنها، من باب أنها يمكن أن تخدش نظام عبدالناصر، بل وعبدالناصر نفسه.

من ظاهر ما قاله هيكل وما رواه نجيب محفوظ عن تداخل السلطة مع «أولاد حارتنا» وهو التداخل الذى وصل إلى منع صدور الرواية فى كتاب، أن السلطة كان لها رأى واضح فى الرواية، ولم تكن غضبتها فقط لأن ما كتبه نجيب أغضب رجال الأزهر، فالسلطة عندما ترضى لا يهمها غضب أحد أو جهة.

ما أميل إليه إلى أن رواية نجيب محفوظ أثارت غضبًا عارمًا داخل كواليس نظام عبدالناصر، فهو لم يكتب الرواية إلا بعد توقف دام ما يقرب من سبع سنوات.

يقول نجيب فى كتاب «محفوظ.. سيرة وطن» الذى صدر عن سلسلة كتاب اليوم فى ديسمبر ٢٠١٢: الذى دفعنى لكتابة «أولاد حارتنا» وهى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة ١٩٥٢ هى تلك الأخبار المتناثرة التى ظهرت فى تلك الفترة عن الطبقة الجديدة، والتى حصلت على امتيازات كثيرة بعد الثورة وتضخمت قوتها حتى بدأ المجتمع الإقطاعى الذى كان سائدًا فى فترة الملكية يعود مرة أخرى، مما ولد فى نفسى خيبة أمل قوية، وجعل فكرة العدالة تلح على ذهنى بشكل مكثف، وكانت هذه هى الخميرة الأولى للرواية.

ويضيف: ولو لم يكن فى الرواية البعد الرمزى، كان يصح أن تثير شيئًا آخر سياسيًا، وهى أثارته بالضرورة، ولما وجدوا شيئًا أقوى من الدين، ومثلما تخاطب الرواية البشر، كانت تخاطب رجال الحكم فى فترة ١٩٥٩ التى صدرت فيها، بعد نشوة الانتصارات التى لا حصر لها، وبدأنا نسمع كلامًا سيئًا، فكان الواحد يريد أن يقول لهم: هل أنتم من صنف الرسل والأنبياء، وما يمثلونه من قيم العدالة، أم أنتم تقفون فى صف الفتوات، وأعتقد أن المعنى لم يغب عن خطتهم إلى أن وجدوا وقفة أكبر من الفتوات وهى الدين، فأثاروها وكان يصح أن تثير الرواية مشاكل سياسية.

ويمكننا أن نستعين بما كتبه غالى شكرى فى كتابه «المنتمى» ففيه إشارة واضحة للمعنى الذى قاله «محفوظ».

يقول «غالى»: ليس من قبيل المصادفة أن تنتهز الرجعية فرصة ملائمة فى ذلك الحين هى أزمة الديمقراطية التى شملت أرجاء العالم العربى، فتوجه ضربتها الأدبية إلى أول عمل أدبى مباشر بالرغم من رمزيته، يرفع شعارات العلم والتقدم والاشتراكية والحرية، وليس من قبيل التداعى الفكرى أن أسجل هنا نقطة مهمة فيما أرى بصدد مرحلة الصمت التى وافقت قلم نجيب محفوظ منذ انتهائه من كتابة «السكرية» عام ١٩٥٢ إلى بداية كتابته لـ«أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩.

ويضيف «غالى»: لقد سئل نجيب محفوظ أكثر من مرة عن هذه السنوات السبع، فكان يجيب دائمًا بأنه أحس فجأة عندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أنه قال كل ما عنده، وأنه لا يجد جديدًا يمكن إضافته، كذلك أجاب بأن الإطار الواقعى استنفد كل ما لديه من طاقة فنية، وأنه سوف يبحث عن شكل تعبيرى جديد إذا واتاه المضمون الإنسانى الجديد.

ويؤكد «غالى»: ولا شك أن نجيب محفوظ بعد الثلاثية كان يعانى صراعًا عنيفًا خاصًا بأشكال التعبير، ولكن أزمته الحقيقية لم تكن قط أنه لا يجد ما يقوله، وإنما على وجه التحديد هى أنه لا يستطيع أن يقول ما يريد، فالنهاية الحزينة التى اختارها للثلاثية تقول بصراحة وجرأة إن هناك أزمة فى هذا المجتمع، وأن هذه الأزمة هى أزمة الحرية والتخلف الحضارى، ولا يمكن لفنان ناضج كنجيب محفوظ أن يقتنع بأن هذا المجتمع المأزوم قد تخلص مما يعانيه، ولم يعد للفن دور يؤديه فى تغيير المجتمع، بل إن نجيب محفوظ الذى أخلص لقضية الانتماء الثورى إلى جانب التقدم لا يستطيع أن يعفينا من تفسير موقف الصمت الذى اتخذه طوال الأعوام السبعة على ضوء الأزمة العميقة فى كيان المجتمع المصرى، أكثر من أن يلجأ إلى الشكل الرمزى فى «أولاد حارتنا» إلا أنه لم يكن قد تخلص بعد من الإحساس بضرورة الأزمة، وانعكس هذا الشعور بالاضطرار على البناء الروائى لـ«أولاد حارتنا»، فتأرجحت تأرجحًا شديدًا بين استخدام الرمز والمباشرة فى إسقاط الرمز على الواقع.

ويشير غالى فى موضع آخر إلى أن الحارة فى «أولاد حارتنا» هى مصر بعينها، فالراوى قد شهد أحداث الرواية ومآسيها بنفسه، وهو يشير على وجه التحديد إلى ما دعاه بأيامنا الأخيرة التى لا تختلف عما تقوله الحكايات فى أزمنة مضت، والحارة هى مصر بعينها ما دامت بقية الحوارى تحسدها على ما جادت عليها به الطبيعة من وقف عظيم بالرغم من أن أهل الحارة لا يتمتعون به، والحارة هى مصر بعينها إذ الصبر هو شيمة أهلها والتواكل الغيبى من سماتهم الرئيسية.

نعود مرة أخرى إلى كلام نجيب محفظ الذى لم يقله عند صدور الرواية، بل قاله بعدها بسنوات.

ويصح أن نعيد هنا الرواية التى يتم تداولها شفهيًا، ولم أرها منشورة فى أى مصدر، ولكنى استمعت إليها أكثر من مرة.

تقول الرواية إن نجيب محفوظ خضع للتحقيق بعد نشر الرواية فى إحدى الجهات السيادية، وسأله المحقق: هل تقصد بشخصية «الجبلاوى» فى الرواية جمال عبدالناصر، وهل تقصد بشخصيات أدهم وجبل ورفاعة وقاسم المعاونين له، فقال: لا.. بل أقصد الله والأنبياء.

لا يوجد دليل واحد على صحة هذه الرواية، ولكنها تتسق مع ما قاله نجيب عن أن روايته كانت موجهة لرجال الحكم بعد ١٩٥٢، وهنا تظهر لنا خيانة جديدة من نجيب محفوظ لروايته، وإن كانت هذه المرة خيانة مشروعة، حاول من خلالها أن ينجى نفسه من عقاب لم يكن ليقدر عليه.

فى هذه المساحة يمكن أن ألمح أداء لنجيب محفوظ فيما يخص «أولاد حارتنا»، فلم يكن حديثه عنها ثابتًا، بل إنه كان يلون الحديث طبقًا لمن يتحدث معه عنها.

فى كتابه «أساتذتى» يروى إبراهيم عبدالعزيز أنه كان أول من نشر شرط نجيب محفوظ لظهور «أولاد حارتنا» فى كتاب داخل مصر، وذلك خلال حوار له معه بمجلة «الإذاعة والتليفزيون»، فقد قرر نجيب عدم نشر الرواية إلا حينما يكتب لها المقدمة مفكر إسلامى كخالد محمد خالد أو د.أحمد كمال أبوالمجد أو الشيخ الغزالى.

تواصل خالد محمد خالد مع إبراهيم عبدالعزيز، ورحب باقتراح نجيب محفوظ، ولكنه طلب فقط معرفة الظروف والملابسات التى أحاطت بكتابة «أولاد حارتنا» والهدف منها حين فكر فى كتابتها.

نقل عبدالعزيز استفسار خالد محمد خالد إلى نجيب الذى رحب بالرد على استفساره شفويًا من خلال شريط تسجيل.

يقول نجيب هذه المرة: أولًا أحب أن أوضح شيئًا وهو أن الكاتب أحيانًا قد يقصد شيئًا، والعمل الذى يكتبه يحقق هذا الشىء وأشياء أخرى، ولذلك فإن أى عمل لى لم أعرف أبعاده كلها إلا بعد النقد، وهذه حقيقة أحب أن أعرضها فى الأول، وطبعًا الأستاذ خالد يدركها تمامًا، لأنه من الكتاب، وإن كان هو كاتب ومفكر يعرف هدفه ويعرف كيف يصل إليه، لكن الفن ليس هذا فقط، لأنه يكون هناك جزء فى الوعى، وأجزاء فى اللاوعى تطلع مع القلم.

ويضيف نجيب. وعندما أسأل نفسى: «أولاد حارتنا» كيف كتبتها ولماذا؟.. الحقيقة أننى كنت فى ظروف سنة ١٩٥٩ قد بدأت أشعر بشىء من الخيبة بالنسبة لثورة يوليو ١٩٥٢، فهى قد جاءت وحققت أعمالًا عظيمة، ولكن بدأنا نسمع كثيرًا: اليوم قبض على فلان، اليوم يعذبون فلانًا، وفيه ناس بتستفيد فوائد كبيرة جدًا إلى أن أصبحوا أكثر من الإقطاعيين، وأشياء من هذا النوع، وبدأ الواحد بعد الفرحة الأولى يرمش شوية، فصورت حارة مصرية تمامًا، وهناك وقف، وهذا الوقف لخير الحارة، وقد وقع بين فريقين، فريق فتوات تريد أن تنهبه، وفريق آخر طيب يريد أن يحافظ على وصية الوقف، وهذه كلها حاجات مصرية.

ويشرح محفوظ لخالد أكثر: ومن الرؤية السياسية فى الوقت نفسه كنت أفكر فى مظلة من تاريخ الإنسانية، ففكرت فى الوصية الكبرى، وفى هؤلاء الناس الذين حاولوا تحقيقها للإنسانية، وكأننى أريد أن أقول من خلال هذا لرجال الثورة فى الآخر: أنتم مع أى فريق، فريق الفتوات، أم مع فريق الرسل، وهذا الذى كان فى ذهنى عندما كتبت، هل هذا طلع بالضبط أم أن هناك أشياءً أخرى طلعت معاه؟ هذه هى الحكاية كلها.

ويختم نجيب رسالته لخالد محمد خالد بقوله: الأمر الذى لا أشك فيه أننى فى حياتى لم يأت إلى شك فى الله، وإذا كنت قد بدأت أفهم الدين فهمًا خاصًا فى وقت المراهقة، فإننى قد فهمت الإسلام على حقيقته تمامًا بعد ذلك، بل أعتقد اعتقادًا جازمًا وحازمًا أنه لا نهضة حقيقية فى بلد إسلامى إلا من خلال الإسلام.

لكنه قبل أن يمضى نجيب فى حديثه الشفوى عن «أولاد حارتنا» أراد أن يزيل اللبس من حول الرواية، والذى يعرف أنه حتمًا وصل إلى خالد محمد خالد.

يقول: الرواية طلعت وقرأها الناس ثم انهالت الاتهامات، والاتهامات كانت بناء على عريضة سيئة أرسلت للأزهر، والأزهر بينى وبينك لا يقرأ روايات مسلسلة، المهم قرأ الرواية على أنها تاريخ وليس على أنها رواية، والذين أرسلوا الرواية للأزهر قالوا فيها إن نجيب محفوظ بيفرض فلان ربنا، و فلان النبى، فاعتبروا هذا تجسيدًا لله، وليست حارة وناس، لا هم اعتبروها ربنا بالذات، طيب هو ربنا بيتزوج ولا ربنا بيخلف أو بيتعارك؟ ودخلنا فى سوء فهم أدبى لا حصر له، وهناك من قالوا إن الرواية لا تخلو من التصوف والإيمان.. ودى حكاية ولاد حارتنا؟

لماذا توقفت عند هذه الواقعة تحديدًا؟

لقد لمحت فى كلام نجيب محفوظ مراوغة وهو يتحدث تحديدًا إلى خالد محمد خالد الكاتب المعروف بحرصه على الديمقراطية والحريات بشكل عام، وكأنى بنجيب محفوظ يدخل لخالد من الباب الذى يفضله، ويحدثه اللغة التى يفهمها، والمفردات التى يستريح لها، فقد كان يريد إقناعه، ولذلك صور هدفه من الرواية على أنها سياسية وليست دينية، وهو ما لم يقتنع به خالد، وطلب مقابلة نجيب محفوظ ليستوضحه أكثر عما أراده، لكن لم يتم هذا اللقاء.

تواطأ نجيب محفوظ إذن مع جمال عبدالناصر والمحيطين به ومن بينهم محمد حسنين هيكل على أن تكون الرواية موجهة

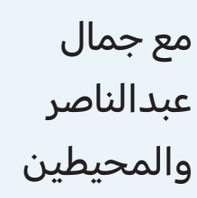

صالح جودت

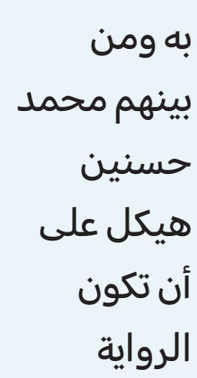

يوسف السباعى

> تواطأ نجيب محفوظ مع جمال عبدالناصر والمحيطين به ومن بينهم محمد حسنين هيكل على أن تكون الرواية موجهة للدين وليس لهم

محمد شعير

محمد كامل حسين

٨ - الاهرام - ٥٩/٩/٢٢

أولاد حارتنا

بقلم نجيب محفوظ

غرائب الطبيعة

أولاد حارتنا.. المجد واللعنة

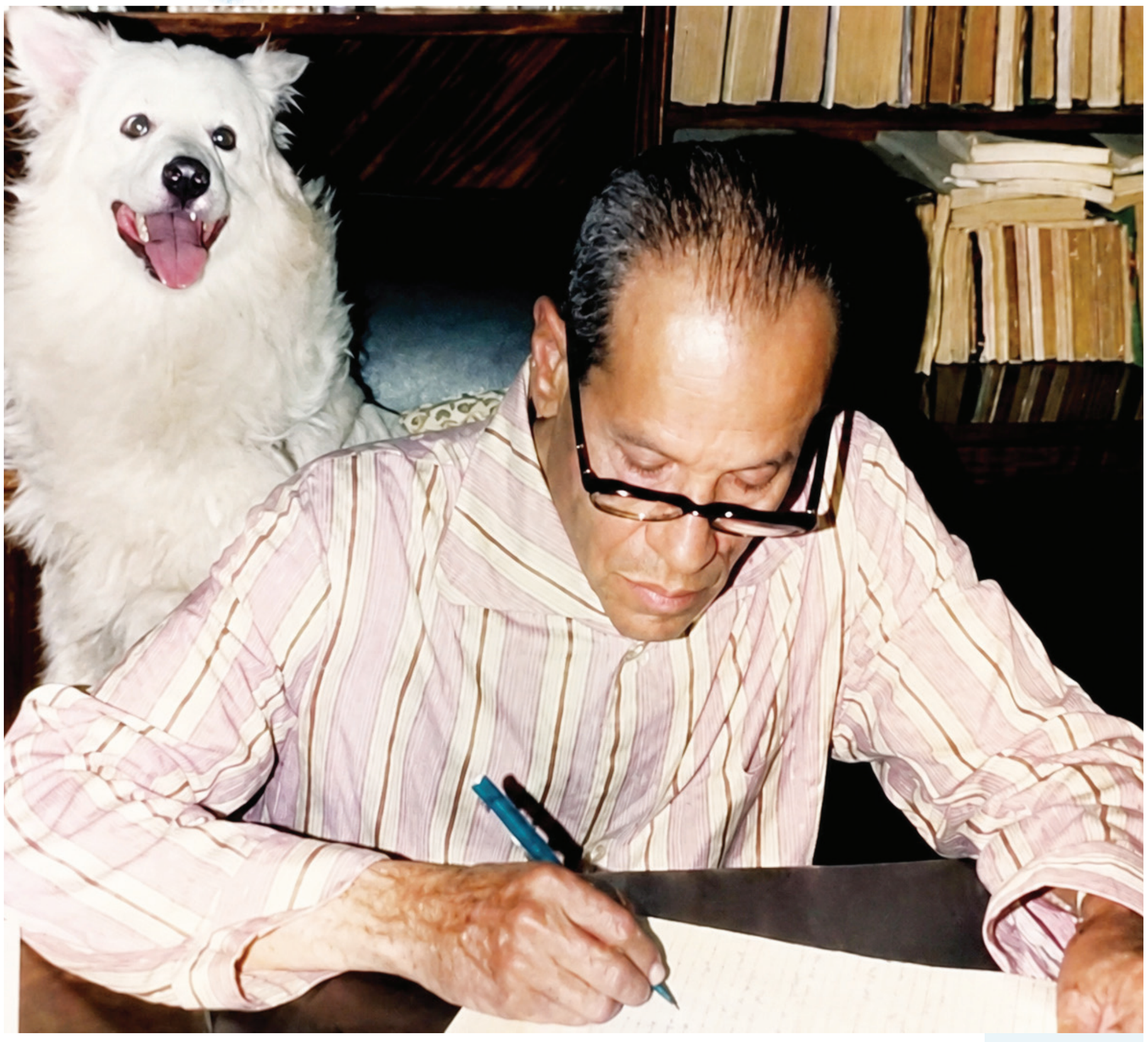

للدين وليس لهم.

والحقيقة أن رجال الدين ومن وراءهم ممن ينتمون إلى جماعة الإخوان لم يقصروا فى مطاردة الرواية ومهاجمتها بعد نشرها وطوال عقود مضت.

البداية كانت من عند الشيخ محمد الغزالى.

وهنا يمكننا أن نعود إلى شهادة سليمان فياض التى نشرتها مجلة «الهلال» فى العام ٢٠٠٥، فهى بالنسبة لى الأدق.

نفتح معا عدد مجلة «الهلال» فى ديسمبر ٢٠٠٥، وسأترك فياض هنا يتحدث دون أن أقاطعه، يقول:

فى عام ١٩٥٩ بدأت الأهرام نشر مفاجأة أدبية على صفحاتها بصورة مسلسلة هى رواية «أولاد حارتنا» لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ، من أول فصل نشر فى عدد الأهرام يوم الجمعة تنبه المثقفون لخطورة التجربة الجديدة التى يقبل عليها نجيب وتابعوها باهتمام بالغ.

وفى ذلك الوقت كان الأمن قد طلب من نجيب محفوظ عدم عقد ندوته الأسبوعية فى كازينو أوبرا، فنقلها إلى مقهى «ريش»، وفى كل أسبوع كنا نلتقى فى «ريش» ويدور الحديث حول الرواية، وهو صامت تمامًا، لا يعلق، فانتظرنا حتى انتهت الرواية.

كانت مجلة «الشهر» التى أعمل فيها قد توقفت، فذهبت إلى صديقى الشيخ محمد الغزالى، وكان مديرا لإدارة المساجد بوزارة الأوقاف، وطلبت منه عملًا بديوان الوزارة، وبالفعل عملت بمكافأة شهرية، وأسند إلى عمل سكرتير لجنة الدفاع عن الإسلام، وكان مقررها الشيخ سيد سابق صاحب كتاب «فقه السنة» الذى خاطبه عبدالناصر مرة «أهلا بمفتى الدم»، وفى أول اجتماع حضرته فى لجنة الدفاع عن الإسلام دار حوار حول رواية «أولاد حارتنا» فتحه الشيخ الغزالى، وهاجم الرواية هجومًا عنيفًا، وقال إنها عبث بتاريخ الديانات وإلحاد، واضطربت أنا، وأصبحت أكاد لا أرى أو أسمع شيئًا من هول الحوار الدائر حول المائدة المستديرة، ولاحظ الشيخ الغزالى اضطرابى، وكان يعرف ميلى الشديد للكتابة القصصية، وقال لى: عنك سأكمل أنا المحضر، وبالفعل كتب المحضر بيده.

وفى نفس الجلسة كتب تقريرًا فيما يقرب من صفحة كاملة، إدانة للرواية واندهشت لأن أكثر الموجودين لم يقرأ «أولاد حارتنا» واعتمدوا شهادة عالمهم الصادق الصدوق الغزالى، الذى أعطانى التقرير وكتبته ابنة الشيخ سيد سابق على الآلة الكاتبة، أخذت منها نسختين.

سارعت فى اليوم التالى للقاء نجيب محفوظ وأعطيته صورة من التقرير، اصفر وجهه بعد أن قرأ التقرير وأخذه منى، وبعد قليل جاء غالى شكرى وأخذ النسخة الثانية من التقرير، ورحم الله غالى طالبته كثيرًا بهذه النسخة، فزعم أننى لم أعطه إياه.

خطف نجيب محفوظ روايته «أولاد حارتنا» من السياسى عن عمد، وألقى بها فى حجر الدين، وبدأ معركته مع رجال الدين حولها.

يقول لرجاء النقاش: فى أحد اجتماعات المجلس الأعلى للثقافة جلس إلى جانبى شيخ الأزهر، ودار بيننا حديث ودى للغاية، لكنه كان متحفظًا على قضية رواية «أولاد حارتنا».

يحلو للبعض أن يتحدث عن قرار شفهى بمصادرة رواية «أولاد حارتنا»، ورغم أننى بحثت كثيرًا عن التقرير الذى كتبه الشيخ محمد الغزالى إلا أننى لم أجده، وقد قلبت كتابى غالى شكرى «المنتمى» و«نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل» عن نص التقرير الذى قال سليمان فياض إن غالى شكرى حصل عليه، إلا أننى لم أجد له أثرًا.

الواقع يؤكد أن هناك تقريرين منسوبين إلى الأزهر بتكفير ومصادرة «أولاد حارتنا»، وقد نشرهما محمد شعير فى كتابه «أولاد حارتنا.. سيرة الرواية المحرمة» دون أن يخبرنا بمصدرهما.

التقرير الأول صدر فى ١٢ مايو ١٩٦٨ أى بعد ما يقرب من تسع سنوات على نشر الرواية، بما يعنى أنه ليس تقرير الشيخ الغزالى.

يقول التقرير الأول: قصة «أولاد حارتنا» تقع فى خمسمائة واثنين وخمسين صفحة من القطع الكبير، وهى من القصص الرمزية التى تتناول تاريخ البشرية ابتداء من آدم وما وقع له ولابنيه، وبعثة الرسل موسى وعيسى ومحمد إلى وقتنا هذا، وما يظهر كل يوم من جديد فى التقدم العلمى.

وقد رمز الكاتب إلى كل حادثة مشهورة وشخصية معروفة، وأضفى عليها من التصوير ما يحدد معالمها ويدل عليها، وإن لم تكن فى الإطار التاريخى لها، فرمز للإله بالجبلاوى، والجنة بحديقة القصر، وآدم بأدهم، وإبليس بإدريس، وموسى بجبل، وعيسى برفاعة، ومحمد بقاسم، إلى آخر الرموز التى استخدمها فى تصوير الأحداث.

وقد أخطأ التوفيق الكاتب فى تناوله للإله والرسل:

أولًا: بالنسبة للإله.. جسد الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان إبليس أو قدرى الابن العاصى من ولدى آدم أو الفتوات، وفى بعض الأحيان على لسان الرسل، والبعض الآخر عند تصويره هو لبعض المواقف، وصفه على لسان إبليس بأنه قاطع طريق فى القديم، وعربيد أثيم فى المستقبل، ووصف تقاليد أسرته بالسخف والجبن المهين، وأنه يغير ويبدل فى كتابه كيف شاء له الغضب والفشل، ووصفه على لسان قدرى ابن آدم بأنه لعنة من لعنات الدهر، وأنه البلطجى الأكبر، ووصفه على لسان أحد الفتوات بأنه ميت أو فى حكم الميت، ووصفه على لسان ناظر الوقف بأنه قعيد حجرته، ولا يفتح بابه إلا عندما تحمل إليه حوائجه، ووصفه على لسان أحد تلاميذ عيسى بأنه عاجز وأنه لو كان فى قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء، ووصفه على لسان عرفه رمز العلم بأنه نائم غير دار بجريمته، ثم يختم قصة الرسالات بموت الجبلاوى.

ثانيًا: بالنسبة للرسل.. صورهم جميعًا فى صورة من يرتاد الغرز ويتعاطى المخدرات، وهذا أخف ما وصفوا به فيما كتب، عيسى وصفه على لسان أحد الفتوات بأنه خنثى، يقول بطيخة أحد الفتوات: فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو أنثى، ويصوره على لسان نفسه وتلاميذه بأنه سكير حشاش، يقول رفاعة «عيسى»: الخمر توقظ العفاريت، ولكنها تنعش من تخلص من عفريته، وتساءل كريم وهو أحد أعوان رفاعة: هل أعد المجمرة؟ فقال رفاعة بحزم: نحن فى حاجة إلى وعينا، وينسب إلى رفاعة الزواج من عاهرة وإن لم يقربها، مع أن عيسى لم يتزوج بنص القرآن، وقد ناقض الكاتب نفسه حين يجعل بعض أتباعه يتجنبون الزواج حبًا فى محاكاته، وجعل ولادة عيسى عن زواج، وذلك خلاف ما نص عليه القرآن، ويتنافى ختام حديثه عن عيسى مع ما جاء به القرآن من أنه لم يقتل، ولكنه جعل نهايته القتل.

ثالثًا: بالنسبة لمحمد المرموز له بقاسم.. وصفه بارتياد القهاوى وتعاطى الجوزة والشراب، وأنه مولع بالنساء يترصدهن بالخلاء عند المغيب، وعند حديثه عن زواجه من قمر «خديجة» اقترب منها بجلبابه الحريرى وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل.

ومن الألفاظ المقذعة الخارجة التى جاء بها الكاتب على لسان أحد البلطجية فى النيل من قاسم: عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا.

بل من أفحش الفحش ما سرده من تعليل لزواج قاسم المتعدد، إذ يقول: لم يتغير من شأنه شىء، اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه فى تجديد الوقف وتنميته، ثم يقوم بسرد التعليل عن زواجه فيقول: إنه يبحث عن شىء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر، أو أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعًا، و إذا كانت الحارة أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات، وإن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون، ومنزلته تعدل فى درجات الفتونة فى زمانها أو تزيد، وينتهى الكاتب من قصته إلى أن التقدم العلمى وتطوره بهذه الصورة إرهاص بإنقراض الرسالات وانقضاء أثرها، وأن ذلك أثر من آثار شيخوخة الإله ثم موته.

ويختتم كاتب التقرير الذى لم يذكر اسمه فى إشارة إلى أنه تعبير عن الأزهر: هذه جوانب المؤاخذة فى القصة، ولا يخفف من وقعها الانتقال من الأحداث الطبيعية وشخصياتها إلى أحداث دالة وشخصيات رامزة، فإن ذلك كله لا يخفى الوجه الحقيقى لكل حادثة ولكل شخصية، كما لا يخفف من وقع هذه المؤاخذات أن ما قدمه الكاتب من حيث هو- بعيدًا عن المعتقدات والمقدسات- عمل فنى ممتاز، وقد كان فى مقدور الكاتب أن يخرج عمله الفنى بعيدًا عن هذا السقوط، لهذا أوصى بعدم نشر القصة مطبوعة أو مسموعة أو مرئية.

أما التقرير الثانى فقد صدر فى ١ ديسمبر ١٩٨٨ بتوقيع الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، ويبدو أن هناك من طالب الأزهر بفحص الرواية بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، وما أشيع أنه حصل عليها تكريمًا له على رواية «أولاد حارتنا».

لن يشغلنى ما دفع الأزهر إلى كتابة التقرير الثانى، فما جاء فى التقرير هو الأهم، يقول الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية:

بعد فحص رواية «أولاد حارتنا» للأستاذ نجيب محفوظ نجدها قصة رمزية واضحة الرمز تشير إلى قصة الحياة والبشر، إلا أنها مع وضوح رموزها تحتوى على خلط شديد، ولا تنتظم على سياق تاريخى أو خط رمزى مستقيم، وقد رمز فيها لفترات متعددة: فترة بدء الخلق حتى بعثة موسى عليه السلام، وفترة بعثة موسى إلى بعثة عيسى عليه السلام، ثم بعثة محمد- صلى الله عليه وسلم-، فترة التخلف والصراع على العالم الإسلامى.. وهكذا.

وقد جسد فى رمزه باسم «الجبلاوى» صورة الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان إبليس «إدريس» أو قدرى «قابيل» الابن العاصى من ولدى آدم «أدهم» أو الفتوات، وفى بعض الأحيان على لسان الرسل أنفسهم، أو فى تصوير بعض المواقف، وقد وصفه مثلًا على لسان إبليس بأنه قاطع طريق فى القديم، وعربيد أثيم فى المستقبل، ووصف تقاليد أسرته بالسخف والجبن المهين، وأنه يغير ويبدل فى كتابه كيف شاء له الغضب والفشل، ووصفه على لسان قدرى «قابيل» ابن آدم بأنه لعنة من لعنات الدهر، وأنه البلطجى الأكبر، ووصفه على لسان أحد الفتوات بأنه ميت أو فى حكم الميت، ووصفه على لسان ناظر الوقف بأنه قعيد حجرته، ولا يفتح بابه إلا عندما تحمل إليه حوائجه، ووصفه على لسان عرفة «العلم الحديث» بأنه نائم غير دار بجريمته.

ثم تنتهى القصة بموت الجبلاوى «الله» على يد عرفة «العلم الحديث».

وأما بالنسبة للرسل فقد صورهم فى صورة من يرتاد «الغرز» ويتعاطى المخدرات، ووصف جبل «عيسى» على لسان أحد الفتوات بأسلوب التحقير بأنه خنثى، لا هو ذكر ولا هو أنثى، وعلى لسان نفسه ولسان تلاميذه بأنه سكير حشاش، كما نسب إلى رفاعة «عيسى» الزواج من عاهر، وإن لم يقربها، ثم ذكر بعد ذلك أن بعض أتباعه تجنبوا الزواج حبًا فى محاكاته، وجعل ولادة عيسى ناشئة عن زواج، وأنهى حياة عيسى بالقتل.

أما بالنسبة لقاسم «محمد» فقد وصفه بأنه يرتاد القهاوى ويتعاطى الجوزة والشراب وأنه مولع بالنساء يترصدهم بالخلاء عند المغيب، و استعمل فى النيل منه ألفاظًا مثل ما ذكره على لسان أحد البلطجية: عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا، ويقول فى تعليل تعدد زوجاته: لم يتغير من شأنه شىء، اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية، كأنما جرى فيها مجراه فى تجديد الوقف وتنميته، ثم يقول إنه يبحث عن شىء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر «خديجة»، وإنه إذا كانت الحارة أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات، وإن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون.

هل لاحظتم شيئًا فى هذا التقرير؟

إنه بالضبط نفس التقرير الأول، قد يكون اختصر كاتبه بعض المفردات والعبارات، لكنه نفس المضمون تقريبًا.

وعندما نقرأ الختام سوف نلحظ بعض الاختلاف، يقول الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية: لا يخفف من هذه المؤاخذات أنها سبقت مساق الرمز لأن الرمز مصحوب بما يحدد المقصود منه بغير لبس ولا شبهة، ولا يذكر أحيانًا على لسان بعض المغرضين أو من استغرقتهم واستهوتهم هذه الأفانين من أن الكاتب يكتب فنًا ولا يقصد به القصص الدينى، فنحن فى هذه القصة نعالج القصة ورموزها الواضحة بدون لجوء إلى قصة الكاتب ونيته، وفسوف يحاسبه الله تعالى عليها، وأما تقدير العمل من حيث هو فن رفيع فنتركه لهؤلاء النقاد الذين استساغت أذواقهم الرفيعة مثل هذا الفن.

ويخلص أمين المجمع فى تقريره إلى أنه قرر حظر تداول الرواية أو نشرها مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وكذلك حظر دخولها بناء على هذا التقرير وعلى تقارير الأجهزة الرقابية الأخرى.. وبالله التوفيق.

التقرير الأول كان واضحًا فى موقفه من الرواية ومن صاحبها.

أما التقرير الثانى فقد وقع فيما يبدو تحت تأثير زخم حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، ولذلك فقد وقف على الحياد من حيث الرأى، فقال أن الله هو الذى سيحاسب نجيب على قصته، وأنه يترك تقدير العمل من حيث هو فن رفيع للنقاد الذين تستسيغ أذواقهم الرفيعة هذا الفن، ورغم أن السخرية واضحة، إلا أن الأزهر ظهر من حيث الرأى وكأنه محايد، لكن من حيث السلوك، فقد قرر مصادرة الرواية بكل أشكالها.

كان نجيب محفوظ يعرف جيدًا أن الدفع برجال الدين فى معركة «أولاد حارتنا» جاء عوضًا عن دخول رجال السياسة والسلطة فيها، وهو ما جعله يستطيب هذه المواجهة، يؤكدها ويعززها ويرسخها، يتحدث مع الشيوخ ويريد أن يحاورهم وينتظر مناظرتهم التى كان يعرف أنها لن تأتى أبدًا.

يقول «نجيب» لرجاء «النقاش»: خدع الأزهر فى هذه الأزمة، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية وفهمها، بل إن بعضهم لم يقرأ رواية أدبية من قبل، ومن هنا فسروا «أولاد حارتنا» تفسيرًا دينيًا، ورأوا أن شخصية أدهم فى الرواية ترمز إلى آدم، وشخصية جبل هى موسى، وشخصية

محمد حسنين هيكل

يقول «نجيب» لـ«رجاء النقاش»: خدع الأزهر فى هذه الأزمة، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية وفهمها

خطف نجيب محفوظ روايته «أولاد حارتنا» من السياسى عن عمد، وألقى بها فى حجر الدين

إحسان عبدالقدوس

رفاعة هى شخصية المسيح، أما شخصية قاسم فهى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام.. وهكذا.

ويفسر نجيب أزمة الرواية مبتعدًا عن جانبها السياسى، يقول: «فى اعتقادى أن سبب الأزمة هو التركيز على التفسير الدينى للرواية، مع أن هناك تفسيرات أخرى، فالرواية الواحدة يمكن تفسيرها بأكثر من تفسير».

ويدلل على ذلك بقوله: وكدليل على صحة وجهة نظرى الخاصة بتعدد التفسيرات بالنسبة للرواية الواحدة، أن ناقدًا وأديبًا شابًا يعمل فى مجلة عالمية أظنها « النيوزويك» بعث لى برسالة طويلة يشرح لى أنه كان يمر بأزمة إبداع لازمته فترة من الوقت، وأثناء هذه الأزمة قرأ بالمصادفة رواية «أولاد حارتنا» مترجمة إلى الإنجليزية، فوجد فيها معانى إنسانية جميلة حركت بداخله المياه الراكدة، كتب نقدًا جميلًا للرواية، أرفقه برسالته، هذا الحماس الذى بعثته الرواية فى داخله دفعه لكتابة عملين قال لى إنهما قيد الطبع، وأنه سيبعث بنسخ منهما لى بمجرد خروجهما من المطبعة.

وعندما تحدث «نجيب» عن الرواية فى تحقيقات النيابة على هامش محاولة اغتياله، حدد موقفه فى نقاط محددة، أخذنا فيها وأخذ المحقق على أرضية الدين وليست السياسة، وجاء موقفه كالتالى:

أولًا: أحب أن أوضح شيئًا مهمًا بخصوص «أولاد حارتنا» اللى بيتخذها الإرهابيون كسند أو دليل لهم على استباحة دمى أو على أننى مرتد على حد قولهم، وهو إن الرواية ألفت قبلها روايات كثيرة بتطبع ككتب، ورواية «أولاد حارتنا» كانت بداية اتصالى بالصحافة، وكانت تنشر مسلسلة فى جريدة الأهرام، وبداية مش معقول يكون رواية فيها مجازفة فكرية أو اجتراء على الذات الإلهية وأخترارها لكى تنشر على عناوين الصحف.

ثانيا: «أولاد حارتنا» مثل «كليلة ودمنة» تخلق عالمًا متطورًا لتوحى بعالم وراءه، فنحن بين حيوانات عاشت فى غابة، ولكن نعرف الحكم والعلاقات بين الأفراد، وحكمة الحكماء وسفاهة السفهاء، ولكن ما دام التزمنا إن احنا نكون فى الغابة، فلازم يكون أبطالنا حيوانات، لأننا بنعامل المرموز له بالحيوان، وعلى نفس النمط مشيت فى «أولاد حارتنا» بأعرض فيها لحياة المصريين فى حارة وأسلوب حياتهم والظلم بكل ما فيه، ثم يجىء الناس اللى رمزت لهم برمز الرسل وغيره ليدافعوا عن الحارة، وعلشان وصية الجبلاوى تنفذ، علشان يحسن هذا الرمز فى الحارة فى صراع بين الأشرار التى فيها، اللى بينهبوا الوقف ويظلموا العباد، حتى ينتصر الحق فى النهاية كرمز لانتصار دين من الأديان.

ثالثًا: «الرواية بتصور إن الدين لعب دورًا فى تطوير البشرية والدفاع عن أبنائها باسم المبادئ الإلهية، وفى ذات القصة يجىء واحد اسمه عرفة معجبانى بنفسه وادعى إن هو اللى يقدر يصلح الحارة مش الجبلاوى ولا غيره، وادعى كمان إن الجبلاوى مات وراح لحاله، وإذا به يقع تحت سيطرة ناظر الوقف وكل علمه يسخره فى خدمة الناظر وليس فى خدمة الحارة، لذلك هو بنفسه قال يجب إحياء الجبلاوى، وموت الجبلاوى وإحياؤه رمز للكفر والعودة للإيمان بإحياء الجبلاوى».

رابعًا: «أنا عايز أقول إن الرواية دى من وجهة نظرى أنا ككاتب أول تبشير لضرورة التحام العلم بالإيمان، والرواية تقول بصريح العبارة إن الدين أنقذ البشرية من المظالم، وإن العلم قادر أيضًا على أن يرتقى بها ويحسن حالتها، لكن بشرط ألا يحيد عن مبادئ الدين، وهناك دليل آخر على أن هذه الرواية لا تتضمن ارتدادًا أو كفرًا أو طعنًا فى الأنبياء والرسل، إن هذه الرواية كتبت سنة ١٩٥٩ وتم نشرها وحجبت عن النشر، إلا أن العقاب عليها يأتى بعد فوات هذه المدة الطويلة، وبعد حصولى على جائزة نوبل مما يدل على أن هذا القصد من الاعتداء على ليس هو أخذى بما ورد بهذه الرواية، وإنما اتخذوها وسيلة أو مبررًا لقتلى دون سبب».

وفى كتاب «محفوظ.. سيرة وطن» تحدث نجيب مستفيضًا فى هذه الرؤية.

يقول: هذه الرواية اتهمت ظلمًا أنها تقتل القيم الروحية فى وقت هى فيه رواية تبحث عن القيم الروحية، ولا أريد أن أذكر بحيثيات جائزة نوبل كى لا أتهم أننى أردد وجهة نظر الغرب، ولكن لا بأس من أن أذكر أن الفقرة الأخيرة فى هذه الحيثيات تقول إن هذه الرواية تناول صاحبها بحث الإنسان الدءوب عن القيم الروحية، وهذا تقدير جاء من الأغراب، أليس هذا شيئًا محزنًا، إن هذه الرواية ليست مصادرة إلا فى مصر، وهى فى الوقت نفسه متداولة شرقًا وغربًا فى البلاد الإسلامية فى المشرق والمغرب، وفى البلاد الغربية فى أقصى الغرب، وفى هذه المساحات الشاسعة على الكرة الأرضية، فى الجهات الأربع لم يعترض عليها مسلم واحد سواء من المسلمين العاديين أو المتخصصين.

ويتحدث «نجيب» عن موقف أساتذة الدين وعلمائه من الرواية، يقول: يصعب فهم موقفهم، وهذا يعود إلى موقف فنى أكثر منه موقف دينى، إن المشكلة الأساسية هو ما غاب تمامًا عند قراءة الرواية، فالرواية يجب أن تقرأ كرواية وليست كتاريخ قط، المطلوب أن نقرأ العمل الروائى وليس الدين أو التاريخ.

يعود «نجيب» مرة أخرى إلى كتاب «كليلة ودمنة»، يقول: لدينا فى التراث العربى كتاب «كليلة ودمنة» وهو كتاب عن عالم الحيوان.. هل أحد يجهله؟ بالطبع لا، إذن فلنتوقف عنده برهة، إن رموزه ترمز إلى ملوك وأمراء ووزراء وحكماء وأخيار وأشرار، هذا الكتاب يقتضى أن نقرأه ككتاب حيوانات، لنستنتج بعد ذلك مغزى الرمز وفحواه، فالفن لغة واحدة لا يخطئها الوجدان قط.

ويضيف: «معنى هذا أنه لا يجوز على سبيل المثال أن نعترض على أن الثعلب الذى يرمز له فى هذا النص التراثى الكبير إلى الوزير، أى وزير، هذا الوزير ينبش فى الزبالة، فنعترض على مؤلف الكتاب ونقول: كيف ينبش فى الزبالة هذا الوزير؟ إن الذى ينبش فى الزبالة يا عزيزى هو الثعلب وليس الوزير.. أليس كذلك؟ غير أن مغزى الحكاية التى يقوم بها الثعلب هى التى ترمز إلى معنى الوزير».

يخرج «نجيب» من «كليلة ودمنة» إلى روايته «أولاد حارتنا» يقول: «فالمسألة إذن جبل أو رفاعة أو قاسم أو أى واحد من شخصيات الرواية يعتبر من الأبطال المصلحين، ليس من الأشرار قط، وبعد ذلك نستطيع أن نطرح المعنى الرمزى، لكن أن نتجاوز جبل فنقول أو نزعم أنه سيدنا موسى، فإن هذا يعتبر فى الحقيقة تجاوزًا فى الحقيقة، إن هذا هو جبل ابن الحارة».

ويصل «نجيب» إلى رجال الدين، فيقول: إذن إنهم لا يعرفون كيف تقرأ الرواية، ولذلك حدث سوء فهم لها من بعضهم، واعتبروها ماسة بكرامة الأنبياء، وصنعوا ضجة هائلة وطالبوا بمحاكمتى.

بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل تجدد الهجوم على أولاد حارتنا، وهذه المرة جاء من منتمين إلى الإخوان والسلفيين.

يتحدث هو عن هجوم الإخوان إلى رجاء النقاش من خلال كاتبهم أنور الجندى.

يقول: «بعد حصولى على جائزة نوبل بفترة كتب الأستاذ أنور الجندى مقالًا فى مجلة - أظنها الاعتصام- يهاجمنى بعنف ويقول إن أدبى كله فسق وفجور، والجندى هو نفسه الذى كفر طه حسين من قبل، وكتب أن فن القصة فن استعمارى مخالف للإسلام، مع العلم أن القرآن يحتوى على قصص من أجمل ما يمكن، والنقلات فى القصص القرآنى من أعذب وأحدث ما يمكن، وفى طريقة القصص القرآنى ملامح الأساليب الحديثة فى فن القصة من ناحية الصور والأساليب واللغة».

وشنت جريدة النور التى كان يرأس تحريرها الحمزة دعبس- والذى لم يكن يخفى إنتماءه للتيار الدينى المتشدد- أكبر حملة للهجوم على نجيب محفوظ وعلى روايته، وحرصت فى عناوينها على أن توجه القراء إلى أن نجيب جسد الله والأنبياء فى روايته.

بعد هجوم أنور الجندى وجريدة النور على نجيب محفوظ وروايته ظهر اسم عمر عبدالرحمن، والرواية لنجيب محفوظ الذى يقول: بعد أنور الجندى جاءت فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن الذى قال فى حديث صحفى نشرته جريدة الأنباء الكويتية: إننا لو كنا قتلنا نجيب محفوظ عندما نشر رواية «أولاد حارتنا» ما ظهر إلى الوجود سلمان رشدى، وأحضر لى الصحفى الأستاذ سليمان الحكيم نسخة من جريدة الأنباء الكويتية التى تحتوى على الحديث وأطلعنى عليها.

لم تؤت هذه الحملة ثمارها إلا بعد ذلك بسنوات، وتحديدًا عام ١٩٩٤ عندما طعن أحد أتباع عمر عبدالرحمن نجيب محفوظ محاولًا قتله.

ورغم أن الظرف كان مناسبًا جدًا لأن يتحرر نجيب محفوظ من التزامه بعدم نشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر مرة أخرى سواء فى كتاب أو غيره، وحتى إذا قدر لها أن تنشر فلا بد أن تحصل أولًا على موافقة الأزهر، إلا أنه لم يفعل ذلك.

فبينما كان نجيب لا يزال فى المستشفى يتلقى علاجه بادرت جريدة الأهالى، ونشرت الرواية كاملة فى عدد خاص دون انتظار لموافقة الأزهر أو حتى الحصول على إذن من صاحب الرواية، فقد كان الحادث دافعًا أكبر من أى موافقة أو أى إذن.

وبررت الجريدة ما أقدمت عليه بقولها: «ننشر الرواية ليقرأها الناس جميعًا، لأن مبدعها الأصيل يرقد فى مستشفى الشرطة، مصابًا بمطواة فى رقبته، طعنه بها شقى من الأشقياء الذين قال لهم فقهاء الحاكمية إنها رواية ملحدة وصاحبها ملحد لا بد من قتله».

وعندما فكر مجدى الدقاق رئيس تحرير مجلة الهلال أن يصدر الرواية ضمن سلسلة روايات الهلال، سعى كثيرون لإفشال محاولته الجريئة لأسباب تتعلق ببيزنس النشر، وساعتها لم يتدخل نجيب محفوظ.

بعد سنوات سألت الدقاق عما دفعه إلى محاولة نشر «أولاد حارتنا»، فقال لى- وهو مثقف كبير وقارئ محترف- أنه كان ولا يزال يعتبر أن «أولاد حارتنا» لم تعد ملكًا لنجيب محفوظ وحده، بل هى ملك لقرائه فى مصر وفى غيرها، ولما كانت الراوية معطلة عن الصدور فى مصر، فقد كان لا بد لأحد أن يأخذ المبادرة، وقررت أنا أكون من يفعل ذلك.

حكى لى «الدقاق» كذلك عن كواليس إفشال محاولته، وعن الخيانة التى تعرض لها، فقد كان يريد أن يفاجئ الجميع بصدور الرواية، لكن هناك وفى دارالهلال من نقل الخبر إلى أحد كبار الناشرين الذى تعاقد مع نجيب محفوظ لنشر كل أعماله، فتحرك لمنع النشر وهو ما دعمه فيه نجيب.

كانت لدى نجيب أكثر من فرصة إذن لنشر الرواية، لكنه كان متمسكًا بشرطه ألا تصدر إلا بموافقة الأزهر، وهى خيانة أخرى من خيانات نجيب لروايته.

كانت لدى نجيب وجهة نظر فى مسألة موافقة الأزهر، فقد كان يريد أن يتفق معه الأزهر فى فهمه لروايته، وفعل ذلك لأنه- كما يقول- ليس ضد الدين ولا ضد الأزهر، ولو كان ضده ولو كانت الرواية ضده لدخل فى تحدٍ معه، ولسعى لنشر الرواية رغمًا عن الأزهر، لكنه ليس كذلك، فلا هو ضد الأزهر ولا هو ضد الدين.

لم يتوافق نجيب محفوظ مع الأزهر، ويبدو أنه يأس من ذلك، وفى النهاية وافق على نشر الرواية لأول مرة فى كتاب من خلال «دار الشروق» بعد أن كتب المفكر الإسلامى أحمد كمال أبوالمجد مقدمة لها، ويبدو أن نجيب اعتبر أن هذه المقدمة دليل على مباركة الأزهر، فلم يكن لأبوالمجد أن يغضب الأزهر ولا رجاله، ويبدو أن هذا كان اتفاقًا ضمنيًا تواطأ الجميع عليه لتخرج الرواية لأول مرة فى كتاب داخل مصر.

روى «أبوالمجد» قصته مع نجيب محفوظ ومع روايته «أولاد حارتنا» والتى دار بينهما حوار بخصوصها عندما زار أبوالمجد الأستاذ فى مستشفى الشرطة بعد محاولة الاعتداء عليه.

استمع أبوالمجد من محفوظ قوله: «إن المغزى الكبير الذى توجت به الرواية أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلًا فى (الجبلاوى) وتصوروا أنهم بالعلم وحده ممثلًا فى (عرفة) يستطيعون أن يديروا حياتهم على أرضهم التى هى الحارة، اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم، فعادوا من جديد يبحثون عن الجبلاوى».

وافق أبوالمجد نجيب فى رؤيته، وقال: «الواقع أننى قرأت (أولاد حارتنا) منذ عدة سنوات، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابًا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدًا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صورة تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز، ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته معبرًا عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه، هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة الحارة التى ترمز للمجتمع الإنسانى، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد «الجبلاوى» حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون بعرفة الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم الهادية والموجهة لأهل الحارة.

ختم أبوالمجد شهادته على رواية «أولاد حارتنا» بقوله: «إننى أدرأ عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويتسرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرج كثيرًا من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام، كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرأوا فى أدب نجيب محفوظ ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مانحين أنفسهم قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلًا عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة والتجربة الغنية والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها الله عليه».

ظهرت رواية «أولاد حارتنا» فى كتاب داخل مصر بداية من عام ٢٠٠٦، بعد ما يقرب من ٤٥ عامًا على مصادرتها، ورغم أن هذا النشر كان من المفروض أن ينهى أسطورتها، فلا أسطورة إلا بالمنع، وها هى لم تعد ممنوعة، لكن ظلت أسطورة «أولاد حارتنا» وأعتقد أنها ستظل، لسبب بسيط وهى أنها كما قلت عند أول مرة قرأتها فيها ليست إلا إلهامًا كاملًا لنجيب محفوظ من الله، ومن يلقيه الله فى قلوب عباده الطيبين يبقى أبدًا.

قد تكون هذه خاتمة مناسبة للحديث الذى طال بيننا عن خيانات نجيب محفوظ لروايته «أولاد حارتنا».

لكن من حقى هنا أن أعيد عليكم ما كتبته فى كتابى «الله فى مصر»، وتحديدًا فى فصل «أنت فين يا جبلاوى.. أنت فين يارب؟»، لأنه يلخص لكم ما أراه فى هذه الرواية.

يمكن أن تقرأوا هذا الخاتمة.. وبعدها سينتهى بيننا الحديث.

لم يختلف نجيب محفوظ فى شىء عن الذين هاجموه ونقموا عليه لأنه صور الذات الإلهية فى روايته «أولاد حارتنا»، هم ينافقون الله، ويصرخون بأعلى صوتهم حتى يسمعهم وهم يدافعون عنه ويدفعون عن طريقه الأذى، ونجيب ينافق المجتمع كله ويلح على أنه لم يكن يقصد الله أبدًا، حتى لا يغضب هذا المجتمع البائس الذى يتاجر بدينه وتدينه، بل لا يمانع من المتاجرة بالله نفسه.

ولذلك بالنسبة لى فنجيب محفوظ خان إبداعه وفكرته وروايته، بل خان الله الذى جعل منه أهم بطل فى رواياته، ثم تنكر له بعد ذلك، وقال إنه لا يعرفه، بل لم يقابله داخل الأوراق أو خارجها.

راجع الذين غضبوا من نجيب محفوظ، أو بالأحرى هؤلاء الذين حرضوا على قتله دون أن يقرأوا روايته، لتعرف أنه كان مخطئًا فى إخفاء الله بين طيات ثوبه، فالذين حاصروه لم يعرفوا الله حق المعرفة، ولذلك كان يجب أن يواجههم مواجهة كاملة، لا يهرب منهم كما هرب.

فى ثلاثية نجيب محفوظ تقول شخصيته الشهيرة الست أمينة: «الله وحده يعرف من أنا».

أعتقد أن هذه الجملة تمثل نجيب محفوظ جدًا، لذلك فكل ما قيل عنه وعن علاقته بالله وعن اجترائه عليه ليس إلا كذبًا وسرابًا، وهباء لن يصمد أبدًا، كان ينقصه فقط أن يدافع عن الله الذى يعرفه، لا أن يتركه نهبًا لمن ينافقونه ويقدمون أنفسهم على أنهم المحاربون الكبار فى ساحة الدفاع عنه، رغم أنهم ليسوا أكثر من متكسبين منه.

جمال عبدالناصر

كانت لدى نجيب أكثر من فرصة إذن لنشر الرواية لكنه كان متمسكًا بشرطه ألا تصدر إلا بموافقة الأزهر

مجدى الدقاق

يوسف القعيد

جمال الغيطانى

ظهرت رواية «أولاد حارتنا» فى كتاب داخل مصر بداية من عام 2006 بعد ما يقرب من 45 عامًا على مصادرتها

غالى شكرى

محمد الغزالى

أولاد حارتنا..
المجد واللعنة

عرفة

الفصل الأخير من «أولاد حارتنا»

عرفة

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب فى القهوات. مَن جبل؟! ومَن رفاعة؟! ومَن قاسم؟! وأين الآثار التى تدل عليهم خارج نطاق القهوات. أما العين فلا ترى إلا حارةً غارقة فى الظلمات وربابًا تتغنى بالأحلام. وكيف آل بنا الأمر إلى هذه الحال؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة فى الغرز، بين الحسرات والضحكات، أن صادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته. وأن قومًا رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة؛ لقرابته من قاسم ولأنه الرجل الذى قتل الفتوات. وأنهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذى لا يقاوم فأبى أن يعود بالحارة إلى عهد الفتونة. لكن الحارة كانت قد انقسمت على نفسها، ومضى أناس فى آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون.

ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية. واستيقظت النبابيت بعد رقاد، وسال الدم فى كل حى على حدة، وبين كل حى وآخر، حتى قُتِل الناظر نفسه فى إحدى المعارك. وأفلت الزمام ووئِد الأمن والسلام، فلم يجد الناس بدًا من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت إلى النظارة التى يتقاتل الطامعون عليها.

هكذا عاد الناظر قدرى إلى النظارة. وانقلبت الأحياء إلى عصبيتها القديمة، وإذا كل حى يسيطر عليه فتوة، ثم دارت المعارك على فتونة الحارة حتى فاز بها سعد الله، فاحتل بيت الفتوة وصار الفتوة الأول، واستأثر يوسف بآل جبل، وعجاج بآل رفاعة، والسنطورى بآل قاسم. ووزع الناظر الريع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حركة التعمير والتجديد. وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر، والفتوات من بعده كما كان المتوقع، فارتدوا إلى النظام القديم، أى أن الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين، ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة إلى فرض الإتاوات على أتباعهم المساكين. وتعطلت حركة الإنشاء حتى توقف البناء فى بيوت لم يشيد منها إلا نصفها أو ربعها. وبدا وكأن شيئًا من القديم لم يتغير إلا أن حى الجرابيع أصبح حى آل قاسم، يرأسه فتوة كالفتوات الآخرين، وتقوم على جانبيه الربوع مكان الأكواخ، والخرائب.

أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه فى الزمان الأسود، بلا كرامة ولا سيادة، تنهكهم الفاقة وتتهددهم النبابيت وتنهال عليهم الصفعات. وانتشرت القذارة والذباب والقمل، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات. ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغانى ينشدها شعراء المقاهى المسطولون. وتباهى كل فريق برجله الذى لم يبقَ منه شىء، وتنافسوا فى ذلك إلى حد الشجار والعراك. وذاعت شعارات المساطيل، فيقول أحدهم وهو داخل إلى الغرزة: «ما فيها فائدة!» يعنى الدنيا لا الغرزة. ويقول آخر: «هناك نهاية واحدة هى الموت، فلنمت بيد الله خير من أن نموت بنبوت فتوة، وأحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة!» وكانوا يتغنون بمواويل حزينة، ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل، أو يترنمون بأغنيات فاحشة داعرة يقذفونها فى آذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو فى خرابة مظلمة. وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول: «المكتوب مكتوب، لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب».

ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك كله الأثيرة بين الحوارى، يشير إليها الرجل من جيراننا ويقول فى إكبار: «حارة الجبلاوى!» ونقبع فى أركانها ساهمين واجمين كأننا بتنا قانعين بالذكريات العزيزة الماضية، أو أننا نجترُّ الإصغاء إلى هاتف فى أعماقنا يهمس بصوت خافت: «ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع بالأمس، فتتحقق مرةً أخرى أحلام الرباب وتختفى من دنيانا الظلمات».

فى يوم من الأيام، قبيل العصر، رأت الحارة فتًى غريبًا قادمًا من ناحية الخلاء، يتبعه آخر كالقزم. كان يرتدى جلبابًا ترابىَّ اللون على اللحم، ويشد على وسطه حزامًا شطر جلبابه شطرين انداح أعلاهما وتدلى وامتلأ بأشياء فيه، وانتعل مركوبًا باهتًا متهتكًا. أما رأسه فبدا عاريًا مشعث الشعر غزيره. وكان أسمر اللون، مستدير العينين، حاد البصر، تلوح فى محجرَيه نظرةٌ قلقةٌ نافذة، وفى حركاته ثقة واعتداد. وقف قليلًا أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه. وتطلعت نحوه الأبصار وكأنما تتساءل: «غريب فى حارتنا؟! يا للوقاحة!».

قرأ ذلك فى أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والجالسين فى القهوات والمطلات من النوافذ، بل فى أعين الكلاب والقطط، حتى خُيِّل إليه أن الذباب نفسه سيتجنبه ازدراءً واحتجاجًا. والتفت نحوه الغلمان فى تحرش، واقترب بعضهم منه، وأخذ الآخرون يملئون النبال أو يبحثون فى الأرض عن طوبة، فابتسم لهم متوددًا، ودس يده فى عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين، ومضوا يمصون النعناع وهم يرمقونه بإعجاب. وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه: أما من بدروم خالٍ للإيجار؟ هيا يا رجال، مَن يدلنى منكم عليه فله قرطاس نعناع.

وسألته امرأة كانت مقتعدة الأرض أمام أحد الربوع: يا ألف مصيبة عليك، مَن أنت حتى تسكن فى حارتنا؟

فضحك الرجل وقال: محسوبك عرفة، من أولاد حارتكم كالآخرين، وهو عائد بعد غيبةٍ طويلة.

فدققت المرأة فيه النظر وتساءلت: ابن مَن يا روح أمك؟

فبالغ فى الضحك توددًا وقال: خالدة الذكر جحشة، ألا تعرفينها يا ست النساء؟

— جحشة؟ نبين زين؟!

— بعينها ولحمها.

وقالت امرأة مستندة إلى جدار، كانت تتابع الحديث وهى تفلى رأس غلام: كنت تتبع أمك فى تلك الأيام وأنت غلام، ما زلتُ أذكرك، وتغير كل شىء فيك إلا عينيك.

فقالت المرأة الأولى: أى والله، وأين أمك؟ ماتت! الله يرحمها، ياما قعدتُ قدام مقطفها سائلة عن الغيب، أوشوش «الدكر» وترمى هى بالودع وتتكلم، الله يرحمك يا جحشة!

فقال بارتياح: الله يطول عمرك، ستدلينى أنتِ على بدروم خالٍ بإذن الله.

فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته: وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة؟

فقال محاكيًا لهجة الحكماء: مصير الحى إلى حارته وأهله.

فأشارت المرأة إلى ربع فى حى رفاعة وقالت: عندك هناك بدروم، خلا مذ ماتت ساكنته حرقًا الله يرحمها، ألا يخيفك ذلك؟

فضحكت امرأةٌ مطلة من نافذة وقالت: هذا رجل تخاف منه العفاريت.

فرفع رأسه متظاهرًا بالضحك والانبساط وقال: يا حارتنا يا حلوة، ما أرقَّ ظرف أهلك! الآن أعرف لماذا نصحتنى أمى عند الوفاة بالعودة إليك!

ثم نظر إلى المرأة القاعدة وقال: الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمى، سواء جاء من حرق أو غرق أو عفريت أو نبوت.

وحيَّاها ومضى نحو الربع الذى أشارت إليه. وأصبح محط أنظار كثيرين، فقال رجل ساخرًا: عرفنا أمه، فمن ذا يعرف أباه؟

فقالت عجوز: ربنا أمر بالستر!

فقال ثالث: يمكنه أن يَدَّعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاعة أو قاسم، كما يشاء أو تشاء مصلحته، الله يرحم أمه!

فهمس صاحبه فى أذنه ساخطًا: لماذا عدت بنا إلى هذه الحارة؟

فقال عرفة والابتسامة ما زالت فى شفتَيه: فى كل مكان أسمع هذا الكلام، وهذه حارتنا على أى حال، وهى الحارة الوحيدة التى يمكننا الإقامة بها. حسبنا تخبطًا فى الأسواق ونومًا فى الخلاء والخرابات. ثم إن هؤلاء الناس طيبون على رغم قذارة ألسنتهم، أغبياء على رغم نبابيتهم، فهنا يسهل علينا كسب رزقنا، تذكر هذا يا حنش!

فهز حنش منكبَيه الضيقين كأنما يقول: «الأمر لله». واعترضهما رجلٌ مسطول فسأل عرفة: ماذا نسميك؟

— عرفة.

— ولقبك؟

— عرفة بن جحشة!

فضجَّ الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه، فعاد المسطول يقول: طالما سألنا أنفسنا فى ذلك الزمان حينما حملت أمك: ترى من يكون أبوك؟ فهل خبرتك بالحقيقة؟

فقال عرفة مداريًا ألمه بمزيد من الضحك: ماتت هى نفسها قبل أن تعرفه!

ومضى وهم يضحكون. وسرى نبأ عودته فى الأحياء. وقبل أن يتسلم البدروم جاء صبى قهوة الرفاعية وقال له: المعلم عجاج فتوة حيُّنا يطلبك.

ذهب إلى القهوة على مبعدة قريبة من الربع. استرعى نظره أول ما اقترب منها الصور المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر. كانت تبدأ من أسفل بصورة لعجاج ممتطيًا جواده، وفوقها صورة للناظر قدرى بشاربه الفخيم وعباءته الأنيقة، ثم فوقهما صورة لجثة رفاعة بين يدى الجبلاوى وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها إلى بيته. تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة، ثم دخل القهوة فرأى عجاج يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن، ومن حوله يجلس الأتباع والأعوان.

مضى عرفة إليه حتى مثل بين يديه فرمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة كأنما ينومه بعينيه قبل أن ينقضَّ عليه. وقال عرفة رافعًا يديه إلى رأسه: التحيات المباركات على فتوتنا، من نحتمى بحماه ونسعد بجواره.

فلاحت السخرية فى العينين الضيقتين وقال: كلام حلو يا ابن القديمة، ولكنه عملة لا نعترف بها وحدها!

فقال عرفة باسمًا: ستجىء العملة الأخرى فى أقرب وقت إن شاء المولى.

— عندنا متسولون أكثر من الحاجة!

فقال عرفة بكبرياء ضاحك: لست متسولًا يا معلم ولكنى ساحر اعترفت بفضله الملايين!

وتبادل الجلَّاس النظرات فقطب عجاج متسائلًا: ماذا تعنى يا ابن المجنونة؟

فدسَّ عرفة يده فى عبه وأخرج حقًّا صغيرًا دقيقًا فى حجم النبقة وتقدم فى خضوع من المعلم ومدَّ به يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث، وفتحه، فرأى مادة قاتمة، ثم رفع إليه عينيه متسائلًا، فقال عرفة فى ثقة لا حد لها: قمحة منه على فنجال شاى قبل «لا مؤاخذة» بساعتَين، وبعدها فإما ترضى عن محسوبك عرفة، وإما تطرده من الحارة مشفوعًا باللعنات.

اشرأبت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة، وحتى عجاج لم يستطع أن يخفى اهتمامه، لكنه تساءل فى استهانة مصطنعة: أهذا هو سحرك؟

— عندى أيضًا البخور النادر، الوصفات العجيبة، الطب والدواء، الأحجبة، ويعرف قدرى حقًّا عند المرض والعقم والضعف.

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد: الله.. الله.. فلنبشر بالإتاوات!

فانقبض قلب عرفة، لكن وجهه زاد انبساطًا وهو يقول: كل ما أملك تحت أمرك يا معلم.

فضحك الفتوة بغتة وقال: لكنك لم تخبرنا من أبوك!

فقال دون أن يزايله المرح: لعلك به أعلم!

وضجت القهوة بالضحك. وتلاقت التعليقات الساخرة فى شراريب الدخان السابحة فى الجو. ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقًا: «من يدرى من يكون أبوه حقًّا؟ ولا أنت يا عجاج، آه يا أولاد الكلب!» وتفقد هو وحنش البدروم فى ارتياح، ومضى يقول: أوسع مما كنت أتوقع، مناسب جدًا يا حنش، فهذه الحجرة صالحة للمقابلات، والتى بالداخل للنوم، والأخيرة للعمل.

فسأله حنش بقلق: ترى فى أى حجرة احترقت المرأة؟

فضحك عرفة ضحكةً عالية رنت بين الجدران الخالية وقال: أتخاف من العفاريت يا حنش؟ إننا نتعامل معهم كما كان جبل يتعامل مع الثعابين.

ونظر فيما حوله بارتياح وقال: ليس عندنا إلا نافذةٌ واحدة فى الحجرة المطلة على الطريق، سنرى الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية، فلهذه المقبرة ميزة جليلة وهى أنها لا يمكن أن تسرق.

— قد تنهب!

— قد!

ثم وهو يتنهد: كل ما عندى فيه فوائد للناس، لكنى لم ألقَ فى حياتى إلا الإساءة.

فقال حنش: سيعوضك النجاح عن كل ما نالك من أذى، أو ما نال المرحومة أمك من قبلُ.

فى أوقات الفراغ كان يحلو له أن يجلس على كنبة قديمة؛ ليتفرج على ما يجرى من النافذة المطلة على أرض الحارة. جلس مسند الجبين إلى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال، أما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه. ووقف أمامه طفل عارٍ وهو يلعب بفأر ميت، ثم مرَّ عجوزٌ ضرير يحمل على يسراه صينيةً خشبية حملت لبًا وفولًا وحلوى وذبابًا ويتوكأ بيمناه على عصًا غليظة، وكان صوت عويل يترامى من شباك بدروم قريب، ومعركة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهيهما. وابتسم للطفل العارى وسأله برقَّة: ما اسمك يا شاطر؟

فأجاب: أونة.

— قصدك حسونة، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة؟

— فرماه به. ولولا أن حجزه قضيب لأصاب وجهه، وجرى الصغير كقارب يتمايل. والتفت نحو حنش وكان يهوم عند قدميه وقال: فى كل شبر من هذه الحارة تجد دليلًا على وجود الفتوات، ولكنك لن تجد دليلًا واحدًا على وجود أناس مثل جبل أو رفاعة أو قاسم.

فقال حنش وهو يتثاءب: نحن نرى أمثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطورى، ولكننا نسمع فقط عن أمثال: جبل ورفاعة وقاسم.

— لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟

فأشار حنش إلى أرض الحجرة بأصبعه وقال: ربعنا رفاعى، كل سكانه رفاعية، أى رجال رفاعة الذى تؤكد الرباب كل مساء أنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة، ومع ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم. هكذا هم نساءً ورجالًا.

فلوى عرفة شفتَيه امتعاضًا وقال: لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟

فواصل حنش كلامه قائلًا: السباب أهون ما يقع فى حى رفاعة، أما المعارك فأجارك الله منها. أمس فقط فقد ساكن عينه.

وقف عرفة محتدًّا وقال: حارة عجيبة! الله يرحمك يا أمى، انظر إلينا مثلًا، الكل ينتفع بنا ولا أحد

رفاعة عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة

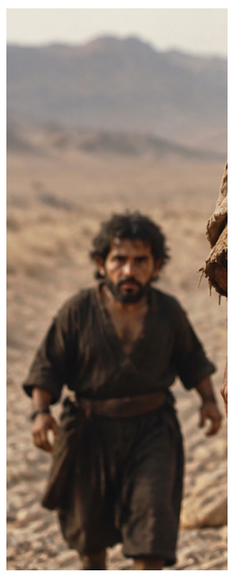

قال وهو يتنهد: كل ما عندى فيه فوائد للناس لكنى لم ألقَ فى حياتى إلا الإساءة

عرفة

يحترمنا!

— إنهم لا يحترمون أحدًا.

فصرَّ على أسنانه وقال: إلا الفتوات!

فقال حنش ضاحكًا: حسبك أنك الوحيد فى هذه الحارة الذى يتعامل معه الجميع من جبلية ورفاعية وقاسمية.

— عليهم اللعنة جميعًا.

وصمت مليًا وعيناه تلمعان فى ضوء البدروم الخافت ثم قال: كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمًى، يفاخرون برجال لم يبقَ منهم إلا أسماؤهم، ولا يحاولون قط أن يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة! أولاد كلب جبناء.

وكان أول من قصده من زبائن امرأةٌ من آل رفاعة، فى الأسبوع الأول من استقراره فى مسكنه، وإذا بها تسأله بصوتٍ خفيض: كيف يمكن التخلص من امرأة دون أن يدرى أحد؟

فارتاع الرجل، ونظر إليها باستغراب، ثم قال: لستُ لذلك يا ستى، إذا أردتِ أدوية للجسد أو للروح فأنا خادمك!

فتساءلت بإنكار: ألستَ ساحرًا؟

فقال بوضوح: فى كل ما فيه فائدة للناس، أما القتل فله أناسٌ آخرون؟

— لعلك خائف؟! لكننا سنكون شريكَين سرهما واحد.

فقال برقَّة تطوى سخرية: لم يكن رفاعة كذلك!

فهتفت: رفاعة؟! عليه الرحمة، نحن فى حارة لا تجدى فيها الرحمة، ولو كانت تجدى ما هلك رفاعة نفسه!

وتركته يائسة، لكنه لم يندم. إن رفاعة نفسه- أول الطيبين- لم يظفر بالسلامة فى هذه الحارة، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة؟! وأمه! كم لاقت من آلام دون أن تتعرض لأحد بأذى. فليكن على خير صلة بالناس جميعًا كما يجدر بكل تاجر لبق. ومضى يتردد على جميع المقاهى فيجد فى كلٍّ قهوة زبونًا يعرفه. واستمع إلى قصص الرباب فى جميع الأحياء حتى اختلطت فى رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس. وكان أول زبون جاءه من حى قاسم رجلًا طاعنًا فى السن فقال له همسًا وهو يبتسم: سمعنا عن الهدية التى أتحفت بها عجاج فتوة رفاعة.

فتفرَّس فى وجهه المجعد باسمًا، فقال الرجل: أتحفنا بما عندك ولا تدهش، فىَّ وحياتك رمق!

وتبادلا ابتسامة كالسر، فقال العجوز متشجعًا: أنت قاسمى، أليس كذلك؟ هكذا يعتبرك أهل حيِّنا.

فسأله عرفة ساخرًا: هل يعرفون أبى عندكم؟!

فقال الرجل بجد واهتمام: القاسمى يعرف بسيماه! لذلك فأنت قاسمى. نحن الذين رفعنا الحارة إلى قمة العدالة والسعادة، ولكننا وا أسفاه حارةٌ مشئومة.

ثم تذكر الرجل الغرض الذى جاء من أجله فقال برقَّة: الهدية من فضلك.

وذهب الرجل وهو يقرب الحُق من عينه العمشاء، وقد دبت فى مشيته المتهالكة صحوة نشاط وأمل. وكان آخر من زاره شخصًا غير متوقع. كان يجلس فى حجرة الاستقبال على شلتة أمامها مبخرة تنفث دخانًا رقيقًا ساحرًا حين دخل عليه حنش بين يدى نوبىٍّ عجوز وهو يقول: عم يونس بواب حضرة الناظر.

فانتفض عرفة واقفًا ومدَّ له يديه مرحبًا وهو يقول: أهلًا.. أهلًا، زارنا النبى.. تفضل يا مولانا!

جلسا متجاورَين، وقال البواب بصراحة معهودة: الهانم، نظيرة هانم حرم الناظر، تحلم أحلامًا مزعجة سيئة حتى قلَّ نومها.

بدا الاهتمام فى عينَى عرفة، ودقَّ قلبه دقة الأمل والطموح، لكنه قال ببساطة: حالٌ عارضة تمر بسلام.

— لكن الهانم منزعجة وقد أرسلتنى إليك لتجد لها شيئًا مناسبًا.

شعر عرفة بسعادة وسيادة لم يعرفهما طوال حياة التشرد التى ألفها فى ظل أمه الراحلة وقال: الأفضل أن أحادثها بنفسى!

فقال البواب بحدة: محال! لن تجىء إليك ولن تدخل إليها!

وغالب عرفة اليأس مستميتًا فى الدفاع عن فرصته الذهبية فقال: يلزمنى منديلها أو شىء من طرفها!

وأحنى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب. وعندما بلغا باب البدروم تلكأ البواب قليلًا، ثم مال على أذن عرفة قائلًا فى همس: سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة!

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلًا، وتساءل الأخير: لمن أخذ الهدية يا تُرى؟ لنفسه أم للناظر أم للهانم؟

وهتف عرفة ساخرًا: يا حارة الهدايا والنبابيت!

ومضى إلى النافذة ينظر إلى الحارة فى الليل. بدا الجدار المواجه لعينَيه مفضَّضًا بضوء القمر، وتعالت زفرات الصراصير، وارتفع صوت الشاعر من قهوة الحى وهو يقول:

«وتساءل أدهم: متى تقرُّ بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

فقال إدريس: لترحمنا السماء، ألست أخى؟ هذه رابطة ليس فى الإمكان فصمها.

— إدريس، كفاك ما فعلت بى!

— الحزن قبيح، ولكنَّ كلينا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند، أصبح للجبلاوى العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل!

فعلا صوت أدهم وهو يهدر: إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء!»

وتحول عرفة عن النافذة فى سأم. متى تكفُّ حارتنا عن حكى الحكايات؟ ومتى يكون على الدنيا العفاء؟ وأمى رددت يومًا هذا القول: «إذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء». أمى المسكينة ساكنة الخلاء. لكن ماذا أفدتِ من الحكايات يا حارتنا؟

كان عرفة وحنش يعملان بهمة فى حجرة البدروم الخلفية على ضوء مصباح غازى مثبت فى الجدار. لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية لرطوبتها وظلامها ولموقعها آخر البدروم فجعل عرفة منها مقرًا لعمله. وبدت على أرضها وفى أركانها مجموعات من أوراق الأحجية، والأتربة والجير، ونباتات وتوابل، وحيوانات وحشرات مجففة كالفئران والضفادع والعقارب، وأكوام من قطع الزجاج، وقوارير، ومياه فى صفائح، وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة، وفحم، وكانون، وقد ركبت على الجدران رفوف حُمِّلت بأنواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس. وكان عرفة منهمكًا فى خلط بعض المواد وعجنها فى وعاء من الفخار كبير، وكان العرق يتصبب من جبينه فيجففه بكُم جلبابه من حين لآخر. هذا وحنش رابض عن كثب، يراقبه باهتمام، استعدادًا لتلبية أى إشارة تصدر منه، وكأنما أراد أن يعزيه أو يتودد إليه فقال: هذا التعب لا يبذل جزءًا منه أكبر عامل فى هذه الحارة المنكودة، وفى سبيل أى جزاء يبذل؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض!

فقال عرفة بارتياح: رحم الله أمى! لا يعرف فضلها سواى، ويوم سلمتنى لذلك الساحر العجيب الذى يقرأ لك جميع ما يجول فى خاطرك تغيرت حياتى تغيرًا كليًا، فلولاها لكنت على خير ظن نشالًا أو متسولًا.

فأصرَّ حنش على أسفه قائلًا: ملاليم!

— النقود تكثر بالصبر، لا تيئس من ذلك. ليست الفتونة هى السبيل الوحيد إلى الثروة، ولا تنسَ المنزلة السامية التى أتمتع بها، فإن من يقصدنى إنما يعتمد كل الاعتماد علىَّ ويضع سعادته أمانة بين يدىَّ، وليس هذا بالشىء القليل. ولا تنسَ أيضًا لذة السحر نفسه؛ لذة استخراج مادة مفيدة من موادَّ قذرة، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك، وهنالك القوى المجهولة التى تتشوف للاتصال بها وامتلاكها إن استطعت.

ونظر حنش إلى الكانون وقال منقطعًا فجأة عن تيار صاحبه: الأوفق أن أوقد الكانون فى دهليز المنور وإلا اختنقنا.

— أوقده فى جهنم، ولكن لا تخرجنى عن أفكارى! إن أى مغفل ممن يحسبون أنفسهم معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التى تصنع فى هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة. أدركوا فائدة «الهدية» ولكن ليست الهدية كل شىء. إن أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن أن تخرج من هذه الحجرة. المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقية، لعلهم يعرفونها يومًا ما، وعند ذاك يجب أن يترحموا على أمى لا أن يُعرِّضوا بها كما يفعلون.

— وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض: كل هذا الجمال قد تطيح به عصا فتوة أحمق.

فقال عرفة بحدة: نحن لا نؤذى أحدًا وندفع الإتاوة؛ فكيف نتعرض للأذى يا ابن جلجل؟

فضحك حنش قائلًا: وما كان ذنب رفاعة؟

فحدجه بنظرةٍ غاضبة وقال: لماذا تقرفنى بهذه الأفكار؟

— أنت تأمل أن تثرى وهنا لا يثرى إلا الفتوات، وتأمل أن تصير قويًا وهنا لا يسمح بالقوة إلا للفتوات، فاعمل حسابك يا أخ!

وصمت عرفة حتى يتأكد من حُسن تقديره فى الخلط بين المواد، ثم نظر إلى حنش فرأى سحنته ما زالت محتفظة بصورة التحذير، فضحك قائلًا: حذرتنى أمى من قبلك، شكرًا يا حنش يا ابن جلجل، لكنى عدت إلى الحارة وفى رأسى خطة!

— يبدو أنه لم يعد يهمك إلا السحر.

فقال عرفة فى جدل كالنشوة: السحر شىء عجيب حقًا، لا حد لقوته، ولا يدرى أحد أين يقف، وقد تبدو النبابيت نفسها لمن يملكه لعب أطفال، تعلم يا حنش ولا تكن غبيًا، تصور لو كان جميع أولاد حارتنا سحرة؟

— لو كانوا جميعهم سحرة لماتوا جوعًا!

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن أسنانٍ حادة وقال: لا تكن غبيًا يا حنش واسأل نفسك: ماذا كان يمكن أن يصنعوا! والله كانت الأعاجيب تخرج من حارتنا فى غزارة السباب والشتائم.

— نعم، على شرط ألا يموتوا جوعًا قبل ذلك!

— نعم، ولن يموتوا ما داموا فى غير...

لكنه سكت قبل أن يتم قوله، ومضى يفكر فى اهتمام حتى كفت يداه عن العمل، ثم رجع يقول: شاعر آل قاسم يقول إن قاسم أراد استغلال الوقت حتى يجد كلُّ حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة الغنَّاء التى حلم بها أدهم.

— ذلك قول قاسم!

فقال وعيناه تلمعان بشدة: ولكن الغناء ليس هو الهدف الأخير! تصور أن يمضى العمر فى فراغ وغناء؟ هو حلمٌ جميل لكنه مضحك يا حنش، الأجمل حقًا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب.

هزَّ حنش رأسه الكبير- الذى يبدو منغرسًا فى جسده دون رقبة تذكر- محتجًا على حديث لا معنى له، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول: دعنى الآن أوقد الكانون تحت المنور.

— افعل، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق إلا الحرق.

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكنبة وجلس ينظر من النافذة إلى الخارج. اقتحمت أذنَيه ضجة الحياة بعد صمت: فتلاقت فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم، تصاحب تيار الرائحين والغادين الذى لا ينقطع. وإذا به يلاحظ أن شيئًا جديدًا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته.

قهوة متنقلة مكونة من قفص مغطًى بملاءةٍ قديمة صفت عليه علب البن والشاى والقرفة، وموقد وكنكات وفناجيل وأكواب وملاعق، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن ماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة فى ربيع العمر وهى تنادى بصوتٍ دافئ: «قهوة مزاج يا جدع!» كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية، وبدا أن أكثر زبائنها من أصحاب عربات اليد والمساكين. وجعل عرفة يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان. هذا الوجه الأسمر المتلفِّع بخمارٍ أسود ما ألطفه! وهذا الجلباب البنى الغامق الذى يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ، هذا الجلباب حشمة وأدب! وهذه القامة الرشيقة، والعينان العسليتان ما أجملهما لولا احمرار أشفار يسراهما لرمد أو قذارة! هى ابنة العجوز كما يشهد الوجهان، ويبدو أنه أنجبها فى سنٍّ متأخرة كما يقع كثيرًا فى حارتنا. ودون تردد صاح بها: يا شابة.. فنجال شاى وحياتك.

فامتدت إليه عيناها، وبسرعة ملأت قدحًا من إبريق مدفون حتى منتصفه فى الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسمًا: عاشت يدك، كم ثمنه؟

— نكلة.

— غالٍ! ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقالت باحتجاج: فى القهوة الكبيرة بتعريفة، وهو لا يمتاز عما فى يدك بشىء.

وذهبت دون انتظار لكلام، فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول عينيه عنها. ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب! لا عيب فيها إلا حمرة عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد بعدُ. والبدروم جاهز وما على حنش إلا أن ينام فى الدهليز أو فى حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يُفلِيها من البق أولًا بأول. وانتبه على همهمةٍ غريبة، ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول البعض منهم: «السنطورى.. السنطورى» فنظر بميل على قدر ما سمحت به القضبان له فرأى الفتوة قادمًا فى هالة من الأعوان. ولما مرَّ بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلًا من رجاله: مَن الفتاة؟

— عواطف بنت عم شكرون.

فلعَّب الرجل حاجبيه فى ارتياح ومضى نحو حيِّه. وشعر عرفة بضيق وقلق. لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته فى خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة. وعند ذاك سألها وهو يشير بذقنه إلى الناحية التى ذهب إليها السنطورى: ألم يضايقك شىء؟

فقالت ضاحكة وهى تستدير لتذهب: سأستعين بك عند اللزوم، فهل تعين؟

فحزَّت فى نفسه سخريتها؛ سخريةٌ حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقة. وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل.

تكاثر زبائن عرفة مع الأيام، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه فى حجرة الاستقبال. نسى مهابة المعلم التى يرتديها أمام زبائنه فوقف مرحبًا بها، ثم أجلسها على شلتة أمامه وتربع فى مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور. حياها بنظرةٍ شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التى كادت تختفى وراء ورمٍ ملتهب، فقال محتجًا: أهملتِها يا شابة، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك.

فقالت كالمعتذرة: اكتفيت بغسلها بالماء الساخن، والمشغول بالعمل مثلى ينسى.

— لا يجوز أن تنسى صحتك، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضوٍ عزيز مثل عينك الجميلة!

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده إلى رف خلفه ليجىء بكوز، ثم أخرج منه لفافةً صغيرة وقال وهو يشير إليها: صُرَّى ما فيها فى منديل، وحطيه فوق بخار ماء يغلى، ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال أختها.

تناولت اللفافة، وأخرجت كيسًا من جيبها وهى تسأله بعينها اليمنى عن الثمن. فقال ضاحكًا: لا عليك من هذا، فنحن جيران وبيننا صداقة!

— لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاى.

فقال متهربًا: إنى أدفع فى الواقع لأبيك، هذا الرجل الوقور. كم أود أن أعرفه، وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة!

فقالت فى مباهاة: لكن صحته جيدة، وهو يأبى أن يقعد فى البيت، غير أن طول عمره من دواعى حزنه فى الحياة؛ إذ إنه كان ممن شهدوا الأحداث على عهد قاسم.

فتجلَّى الاهتمام فى وجه عرفة وسألها: حقًا؟! أكان من أعوانه؟

— كلا، لكنه ذاق السعادة فى أيامه وما زال يتحسر عليها.

— أريد أن أعرفه وأن أستمع إليه.

فبادرته قائلة: لا تجرِّه إلى هذا الحديث، فإنى أود أن ينساه إلى الأبد حرصًا على سلامته. كان مرة فى خمارة يشارب بعض أصحابه، ولما سَكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما كانت عليه أيام قاسم، وما إن عاد إلى حارتنا حتى وجد السنطورى أمامه فانهال عليه ضربًا وصفعًا ولم يتركه حتى أغمى عليه.

تفكر عرفة فى امتعاضٍ شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال: لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات!

فرمقته بنظرةٍ خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر، وقالت: صدقت، لا أمان لأحد معهم.

وتريَّث وهو يعضُّ شفتيه كالمتردد، ثم قال: رأيت السنطورى وهو ينظر إليك نظرة كلها وقاحة.

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها إلى أسفل، وقالت: أن يترحموا على أمى لا أن يُعرِّضوا بها كما يفعلون.

— وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض: كل هذا الجمال قد تطيح به عصا فتوة أحمق.

فقال عرفة بحدة: نحن لا نؤذى أحدًا وندفع الإتاوة؛ فكيف نتعرض للأذى يا ابن جلجل؟

فضحك حنش قائلًا: وما كان ذنب رفاعة؟

فحدجه بنظرةٍ غاضبة وقال: لماذا تقرفنى بهذه الأفكار؟

— أنت تأمل أن تثرى وهنا لا يثرى إلا الفتوات، وتأمل أن تصير قويًا وهنا لا يسمح بالقوة إلا للفتوات، فاعمل حسابك يا أخ!

وصمت عرفة حتى يتأكد من حُسن تقديره فى الخلط بين المواد، ثم نظر إلى حنش فرأى سحنته ما زالت محتفظة بصورة التحذير، فضحك قائلًا: حذرتنى أمى من قبلك، شكرًا يا حنش يا ابن جلجل، لكنى عدت إلى الحارة وفى رأسى خطة!

— يبدو أنه لم يعد يهمك إلا السحر.

فقال عرفة فى جدل كالنشوة: السحر شىء عجيب حقًا، لا حد لقوته، ولا يدرى أحد أين يقف، وقد تبدو النبابيت نفسها لمن يملكه لعب أطفال، تعلم يا حنش ولا تكن غبيًا، تصور لو كان جميع أولاد حارتنا سحرة؟

— لو كانوا جميعهم سحرة لماتوا جوعًا!

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن أسنانٍ حادة وقال: لا تكن غبيًا يا حنش واسأل نفسك: ماذا كان يمكن أن يصنعوا! والله كانت الأعاجيب تخرج من حارتنا فى غزارة السباب والشتائم.

— نعم، على شرط ألا يموتوا جوعًا قبل ذلك!

— نعم، ولن يموتوا ما داموا فى غير...

لكنه سكت قبل أن يتم قوله، ومضى يفكر فى اهتمام حتى كفت يداه عن العمل، ثم رجع يقول: شاعر آل قاسم يقول إن قاسم أراد استغلال الوقت حتى يجد كلُّ حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة الغنَّاء التى حلم بها أدهم.

— ذلك قول قاسم!

فقال وعيناه تلمعان بشدة: ولكن الغناء ليس هو الهدف الأخير! تصور أن يمضى العمر فى فراغ وغناء؟ هو حلمٌ جميل لكنه مضحك يا حنش، الأجمل حقًا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب.

هزَّ حنش رأسه الكبير- الذى يبدو منغرسًا فى جسده دون رقبة تذكر- محتجًا على حديث لا معنى له، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول: دعنى الآن أوقد الكانون تحت المنور.

— افعل، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق إلا الحرق.

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكنبة وجلس ينظر من النافذة إلى الخارج. اقتحمت أذنَيه ضجة الحياة بعد صمت: فتلاقت فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم، تصاحب تيار الرائحين والغادين الذى لا ينقطع. وإذا به يلاحظ أن شيئًا جديدًا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته.

قهوة متنقلة مكونة من قفص مغطًى بملاءةٍ قديمة صفت عليه علب البن والشاى والقرفة، وموقد وكنكات وفناجيل وأكواب وملاعق، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن ماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة فى ربيع العمر وهى تنادى بصوتٍ دافئ: «قهوة مزاج يا جدع!» كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية، وبدا أن أكثر زبائنها من أصحاب عربات اليد والمساكين. وجعل عرفة يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان. هذا الوجه الأسمر المتلفِّع بخمارٍ أسود ما ألطفه! وهذا الجلباب البنى الغامق الذى يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ، هذا الجلباب حشمة وأدب! وهذه القامة الرشيقة، والعينان العسليتان ما أجملهما لولا احمرار أشفار يسراهما لرمد أو قذارة! هى ابنة العجوز كما يشهد الوجهان، ويبدو أنه أنجبها فى سنٍّ متأخرة كما يقع كثيرًا فى حارتنا. ودون تردد صاح بها: يا شابة.. فنجال شاى وحياتك.

فامتدت إليه عيناها، وبسرعة ملأت قدحًا من إبريق مدفون حتى منتصفه فى الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسمًا: عاشت يدك، كم ثمنه؟

— نكلة.

— غالٍ! ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقالت باحتجاج: فى القهوة الكبيرة بتعريفة، وهو لا يمتاز عما فى يدك بشىء.

وذهبت دون انتظار لكلام، فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول عينيه عنها. ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب! لا عيب فيها إلا حمرة عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد بعدُ. والبدروم جاهز وما على حنش إلا أن ينام فى الدهليز أو فى حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يُفلِيها من البق أولًا بأول. وانتبه على همهمةٍ غريبة، ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول البعض منهم: «السنطورى.. السنطورى» فنظر بميل على قدر ما سمحت به القضبان له فرأى الفتوة قادمًا فى هالة من الأعوان. ولما مرَّ بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلًا من رجاله: مَن الفتاة؟

— عواطف بنت عم شكرون.

فلعَّب الرجل حاجبيه فى ارتياح ومضى نحو حيِّه. وشعر عرفة بضيق وقلق. لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته فى خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة. وعند ذاك سألها وهو يشير بذقنه إلى الناحية التى ذهب إليها السنطورى: ألم يضايقك شىء؟

فقالت ضاحكة وهى تستدير لتذهب: سأستعين بك عند اللزوم، فهل تعين؟

فحزَّت فى نفسه سخريتها؛ سخريةٌ حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقة. وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل.

تكاثر زبائن عرفة مع الأيام، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه فى حجرة الاستقبال. نسى مهابة المعلم التى يرتديها أمام زبائنه فوقف مرحبًا بها، ثم أجلسها على شلتة أمامه وتربع فى مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور. حياها بنظرةٍ شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التى كادت تختفى وراء ورمٍ ملتهب، فقال محتجًا: أهملتِها يا شابة، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك.

فقالت كالمعتذرة: اكتفيت بغسلها بالماء الساخن، والمشغول بالعمل مثلى ينسى.

— لا يجوز أن تنسى صحتك، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضوٍ عزيز مثل عينك الجميلة!

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده إلى رف خلفه ليجىء بكوز، ثم أخرج منه لفافةً صغيرة وقال وهو يشير إليها: صُرَّى ما فيها فى منديل، وحطيه فوق بخار ماء يغلى، ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال أختها.

تناولت اللفافة، وأخرجت كيسًا من جيبها وهى تسأله بعينها اليمنى عن الثمن. فقال ضاحكًا: لا عليك من هذا، فنحن جيران وبيننا صداقة!

— لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاى.

فقال متهربًا: إنى أدفع فى الواقع لأبيك، هذا الرجل الوقور. كم أود أن أعرفه، وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة!

فقالت فى مباهاة: لكن صحته جيدة، وهو يأبى أن يقعد فى البيت، غير أن طول عمره من دواعى حزنه فى الحياة؛ إذ إنه كان ممن شهدوا الأحداث على عهد قاسم.

فتجلَّى الاهتمام فى وجه عرفة وسألها: حقًا؟! أكان من أعوانه؟

— كلا، لكنه ذاق السعادة فى أيامه وما زال يتحسر عليها.

— أريد أن أعرفه وأن أستمع إليه.

فبادرته قائلة: لا تجرِّه إلى هذا الحديث، فإنى أود أن ينساه إلى الأبد حرصًا على سلامته. كان مرة فى خمارة يشارب بعض أصحابه، ولما سَكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما كانت عليه أيام قاسم، وما إن عاد إلى حارتنا حتى وجد السنطورى أمامه فانهال عليه ضربًا وصفعًا ولم يتركه حتى أغمى عليه.

تفكر عرفة فى امتعاضٍ شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال: لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات!

فرمقته بنظرةٍ خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر، وقالت: صدقت، لا أمان لأحد معهم.

وتريَّث وهو يعضُّ شفتيه كالمتردد، ثم قال: رأيت السنطورى وهو ينظر إليك نظرة كلها وقاحة.

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها إلى أسفل، وقالت:

> الحزن قبيح ولكنَّ كلينا مصاب أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند

> تكاثر زبائن عرفة مع الأيام لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه فى حجرة الاستقبال

أولاد حارتنا.. المجد واللعنة

عرفة

ربنا يأخذه.

لكن عرفة تساءل فى ارتياب: أليس مما يسر الفتاة أن يعجب بها فتوة مثله؟

— إنه زوج لأربع!

فغاص قلبه فى أعماقه، وتساءل: وإذا كان عنده متسع؟

فقالت بحدة: كرهته منذ اعتدى على أبى، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب لهم، يأخذون الإتاوة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون.

فانتعش بالارتياح وقال بحماس: أحسنتِ يا عواطف! كما أحسن قاسم من قبلُ يوم قضى عليهم، لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل الغامضة.

— لذلك يتحسر أبى على أيام قاسم.

فهزَّ رأسه فى غير اكتراث طارئ وقال: ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة، لكن الماضى لا يعود.

فقالت فى استياءٍ مليح: تقول ذلك؛ لأنك لم تشهد قاسم مثل أبى.

— وهل شهدتِه أنت؟

— أبى قال لى.

— وأمى قالت لى، ولكن ما جدوى ذلك؟ إنه لا يخلصنا من الفتوات، وأمى نفسها كانت ضحية لهم، وها هم أولاء يعرضون بها بعد موتها.

— حقًا؟!

فقال بوجهٍ متجهم كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة بإثارة رواسبه: لذلك أخشى عليك يا عواطف. الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام. أصارحك بأننى اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع إليك بوجوب القضاء عليهم.

فقالت عواطف باهتمام: يقولون إنه فى وصية جدنا الواقف...

— أين جدنا؟!

فقالت ببساطة: فى البيت الكبير.

فقال بهدوء وبوجه لا ينمُّ عن السرور: نعم أبوك يحدث عن قاسم، وقاسم حدث عن جدنا، هكذا نسمع، ولكنا لا نرى إلا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطورى ويوسف. نحن فى حاجة إلى قوة تخلصنا من العذاب، فماذا تجدى الذكريات!

وانتبه إلى أن مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء، فقال وهو يعدل عن السيكا إلى الصبا: الحارة فى حاجة إلى قوة كما أنا فى حاجة إليكِ!

فحدجته بنظرة استنكار، فابتسم فى جرأة بدت غير غريبة عن عينَيه الجارحتَين، وقال بجدية: ليتحاشى غضبةً متوثبة فى حاجبَيها: شابةٌ طيبةٌ مجتهدةٌ جميلة، تنسى فى غمرة العمل عينها حتى تورمت، ثم تجيئنى وهى تظن أنها فى حاجة إلىَّ فتتضح لها الحقيقة، وهى أننى أنا الذى فى حاجة إليها.

قالت وهى تهم بالقيام: آن لى أن أنصرف.

— بغير غضب من فضلك، واذكرى أننى لم أصرح بجديد، فلا شك فى أنك استشففت إعجابى بك طوال الأيام الماضية إذ إن نظراتى تذهب وتجىء ما بين نافذتى وقهوتك. إن أعزب مثلى لا يمكن أن يعيش وحده إلى الأبد، وإن بيته المشحون بالعمل فى حاجة للرعاية، وإن أرباحه تفيض عن حاجته فلا بد أن يشاركه فيها إنسان.

غادرت الحجرة. وقف فى نهاية الدهليز ليودعها. وكأنها لم ترضَ أن تذهب دون تحية فقالت: فُتك بعافية.

ولبث مكانه وهو يترنم بصوتٍ مهموس:

خدك المياس يا بدرى،
واملأ لى الكاس من بدرى،
أنت أحلى الناس فى نظرى.

ثم مضى فى فتوة ونشاط إلى حجرة العمل فوجد حنش منهمكًا فى واجباته، فسأله: ماذا عندك؟

فعرض أمامه زجاجة وهو يقول: معبأة ومحكمة الإغلاق، لكن ينبغى أن تجرب فى الخلاء.

فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها، ثم قال: نعم، فى الخلاء وإلا افتضح أمرنا.

فقال حنش بقلق: الرزق بدأ يجىء والحياة تبتسم، فلا تفرط فيما وهبك الله من سعادة.

أخذ حنش يضيق بالحياة بعد أن حَلَتْ فى عينيه. ابتسم عرفة عند هذا الخاطر. ونظر إلى حنش مليًا ثم قال: كانت أملك كما كانت أمى.

— نعم، ولكنها توسلت إليك ألا تفكر فى الانتقام.

— كان رأيك غير ما تبدى الآن!

— سنُقتل قبل أن ننتقم.

فضحك عرفة وقال: لا أخفى عنك أننى كففت عن التفكير فى الانتقام من زمن.

فتهلل وجه حنش وهو يقول: هات الزجاجة لنفرغها يا أخى.

لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول: بل سنجربها حتى تبلغ الكمال.

فقطب حنش فى استياء احتجاجًا على الهزء به، فأردف عرفة قائلًا: أنا أعنى ما أقول يا حنش، ثق بأننى عدلت عن الانتقام، لا إذعانًا لتوسلات أمنا، وإنما لاقتناعى بوجوب القضاء على الفتوات بصرف النظر عن انتقامنا.

فقال حنش محتدًا: بسبب حبك لهذه الفتاة.

فضحك عرفة حتى بان حلقه وقال: حب الفتاة، حب الحياة، اسْمه بما تشاء.. كان قاسم على حق!

— ما لك أنت وقاسم؟! كان قاسم يحقق رغبة جده!

فمط بوزه وقال: مَن يدرى؟! حارتنا تحكى الحكايات، أما نحن فنقوم بأعمال حاسمة فى هذه الحجرة لا شك فيها، وأين الأمان فى حياتنا؟ سيجىء عجاج غدًا لينهب رزقنا، وإذا قدمت يدًا للزواج من عواطف اعترضنى نبوت السنطورى، وهذا حال كل رجل فى حارتنا حتى المتسول. فما يكدر صفوى هو ما يكدر صفو حارتى، وما يؤمننى هو ما يؤمنها. حقًا ما أنا بفتوة، ولا برجل من رجال الجبلاوى، ولكنى أملك الأعاجيب فى هذه الحجرة، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. ورفع الزجاجة بيده متخذًا هيئة المتوثب للقذف بها، ثم أعادها إلى حنش قائلًا: سنجربها الليلة بالجبل.. ابسط وجهك واستعِد حماسك.

وغادر حجرة العمل إلى النافذة، وتقرفص فوق الكنبة مرسلًا ناظريه إلى القهوة المتنقلة. وكان الليل يهبط رويدًا، وصوتها يعلو مناديًا بالقهوة والشاى، وتجنبت النظر إلى نافذته فدلَّ التجنب على خطوره ببالها. وومض بالابتسام فمها مثل ذلك النجم. وابتسم عرفة، كيانه كله ابتسم، وفاض من قلبه الرضا حتى أقسم ليمشطن شعره كل صباح. وترامت من الجمالية ضجة أقوام يطاردون لصًا، ثم انبعثت من القهوة أنغام الرباب، وترامى صوت الشاعر مفتتحًا ليلته بقوله:

الأولة آه.. سى قدرى ناظرنا
والثانية آه.. سعد الله فتوتنا
والثالثة آه.. عجاج فتوة حتتنا.

فانتُزع من حلمه بلا رحمة. وقال بملل وتمرد: «ستبدأ الحكايات، متى تنتهى هذه الحكايات؟ وماذا أفاد الاستماع إليها طوال الليالى؟ سيغنى الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحسرات!»

وطرأ على حياة عم شكرون اضطرابٌ غامض. كان يتكلم أحيانًا بصوتٍ مرتفع جدًا كأنه يخطب فيقولون بعطف: «الكِبَر.. إنه الكِبَر!»

وكان يغضب شديد الغضب لأتفه سببٍ أو لغير ما سبب فيقولون: «الكبر»، وكان يصمت طويلًا حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون: «الكبر!» وكان يقول أقوالًا تعد فى الحارة كُفرًا فيقولون فى إشفاق: «الكبر.. اللهم احفظنا!» وكان عرفة يراقبه كثيرًا من خلال القضبان فى عطف واهتمام. ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه: رجلٌ مهيب على رغم أسماله البالية وقذارته، وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التى عدت على الحارة عقب أيام قاسم؛ إذ إنه من سوء حظه أنه عاصر قاسم، فنعم بأيام العدل والأمان، ونال نصيبه كاملًا من ريع الوقف، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى. وبالجملة هو رجل بائس طال به العمر أكثر مما ينبغى! ورأى عواطف قادمة بوجه لا تشوبه شائبة بعد أن شفيت عينها فتحول عن الرجل إليها وهتف باسمًا: الشاى يا أهل النظر!

وجاءته بالقدح فقال قبل أن يتناوله من يدها ليضمن بقاءها: مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا.

فقالت باسمة: الفضل لله ولك.

وتناول القدح متعمدًا أن تمس أنامله أناملها، فرجعت ومرح مشيتها ينبئ عن القبول والرضا. ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة! وهو رجل لا تعوزه الجرأة، غير أنه يجب أن يعمل للسنطورى ألف حساب. الحق على عم شكرون الذى جاء بفتاته إلى طريق السنطورى! لكنه مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه القهوة المشئومة.

وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية، وما لبث أن ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصفقات فى وسطهن عروس عائدة من الحمام، فجرى الغلمان نحو العربة مهللين وتعلقوا بأطرافها وهى صاعدة نحو حى آل جبل، واضطرم الجو حيًا بالزغاريد والتهانى والهمسات الفاحشة. ووقف عم شكرون كالغاضب وصاح بصوت كالرعد: اضرب.. اضرب!

فهرعت إليه عواطف وأجلسته وهى تربت ظهره فى أسًى وحنان. وتساءل عرفة: ترى هل يحلم الرجل أو يهلوس؟ ما ألعن الكبر! كيف إذن يعيش جدنا الجبلاوى؟ وجعل ينظر إلى الرجل حتى سكن ثم سأله برقَّة: يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوى؟

فأجابه دون أن ينظر إليه: يا مغفل، ألا تدرى أنه اعتكف فى بيته من قبل أيام جبل!

فضحك عرفة، كما ابتسمت عواطف، وقال بصوتٍ باسم: ربنا يمد فى عمرك يا عم شكرون.

فصاح شكرون: دعاء كان له قيمة حقًا عندما كان العمر له قيمة.

وجاءته عواطف لتأخذ القدح فقالت له همسًا: دعه فى حاله، إنه لا ينام من الليل ساعة!

فقال باهتمام حار: قلبى عندك يا عواطف.

ثم بسرعة قبل أن تهم بالسير: أود أن أحدثه فى أمرنا.

فحذرته بأصبعها وذهبت. وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون «وطى البصلة». وبغتة ظهر السنطورى قادمًا من حى آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بحركةٍ غريزية. ماذا جاء به؟ من حسن حظه أنه أقام فى حى آل رفاعة فأصبح له من عجاج حام؛ عجاج الغارق فى «هداياه». اقترب الفتوة حتى وقف أمام قهوة شكرون، وتفحص وجه عواطف وهو يقول: واحد سادة.

لعلعت ضحكة امرأة فى نافذة وتساءلت أخرى: أى شىء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين؟!

بدا السنطورى غير مكترث لشىء. قدمت عواطف له الفنجال فتلوى قلب عرفة فى صدره. وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يبتسم إلى الفتاة ابتسامةً وقحة كشفت عن أسنانه المذهبة. وتوعده عرفة فى نفسه بضربه بجبل المقطم. ورشف السنطورى رشفة وقال: تسلم يدك الجميلة.

وخافت أن تبتسم كما خافت أن تقطب على حين تطلع شكرون إليهما بارتياع. ثم أعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست يدها فى جيبها لإحضار الفكة ولكنه لم ينتظر ولم يُبدِ أنه يطالب بشىء، وعاد إلى قهوة القاسمية. وحارت عواطف فى أمرها فقال لها عرفة بصوتٍ منخفض: لا تذهبى إليه.

فتساءلت: وباقى النقود؟

فنهض عم شكرون على رغم ضعفه وأخذ الباقى وذهب إلى المقهى. وبعد قليل عاد العجوز إلى مجلسه. وما لبث أن أغرق فى الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء: كفاك ضحكًا!

ونهض قائمًا مرةً أخرى. وقف مُستقبلًا بيت الواقف فى نهاية الحارة، وصاح: يا جبلاوى.. يا جبلاوى!

والتفتت نحوه الأعين من النوافذ وأبواب الربوع والمقاهى والبدرومات، وهرع نحوه الغلمان، حتى الكلاب رمقته بأعينها.. وعاد شكرون يصيح: يا جبلاوى، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء؟! وصاياك مهملة وأموالك مضيعة، أنت فى الواقع تُسرق كما يُسرق أحفادك يا جبلاوى!

وهتف الصغار «هيه»، وقهقه كثيرون. أما العجوز فاستدرك صارخًا: يا جبلاوى ألا تسمعني؟ ألا تدرى بما حلَّ بنا؟ لماذا عاقبت إدريس وكان خيرًا ألف مرة من فتوات حارتنا؟! يا جبلاوى!

خرج عند ذلك السنطورى من المقهى وهو يصيح به: يا مخرف احتشم.

فالتفت نحوه غاضبًا وهتف: عليك اللعنة يا وغد الأوغاد!

همس كثيرون فى إشفاق: «ضاع الرجل!» واتجه السنطورى نحوه وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته. ترنح الرجل وكاد يهوى لولا أن أدركته عواطف. ورآها السنطورى فرجع إلى مجلسه.

وقالت الفتاة باكية: لنعدْ إلى البيت يا أبى.

وانضم إليها عرفة فى مساندته، ولكن العجوز حاول فى ضعف أن يبعدهما عنه. وثقلت أنفاسه على حين ساد الأقربين وجوم. وقالت امرأة من نافذة: الحق عليكِ يا عواطف، فالأحسن أنه كان يبقى فى البيت.

فقالت عواطف وهى ما زالت تبكى: ما لى حيلة.

وراح شكرون يقول بصوتٍ ضعيف: يا جبلاوى.. يا جبلاوى!

وقبيل الفجر شق صواتٌّ مولول السكون، ثم عرف الناس أن شكرون قد مات. كانت حادثة غير غريبة على الحارة. وقالت بطانة السنطورى: «الله يجحمه، عاش قليل الأدب، وقلة الأدب كانت السبب فى موته». وقال عرفة لحنش: قُتل شكرون، كما يُقتل كثيرون فى حارتنا، والقتلة لا يبالون بإخفاء جرائمهم، ولا يتجرأ أحد على الشكوى أو يجد شاهدًا واحدًا!

فقال حنش بتقزز: يا للمصيبة! لماذا جئنا إلى هنا؟!

— إنها حارتنا.

— أُمُّنا غادرتها منكسرة الخاطر، حارة ملعونة هى ومن عليها.

فقال بإصرار: لكنها حارتنا.

— كأننا نكفر عن ذنوب لم نجنِها.

— التسليم هو أكبر الذنوب جميعًا.

فقال حنش بيأس: خابت تجربة الزجاجة فى الجبل!

— لكنها ستنجح فى المرة القادمة.

ولما حُمل نعش شكرون لم يكن وراءه إلا عواطف وعرفة، هكذا بدا أمام الربع. وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر فى الجنازة، وتهامسوا بجرأته العجيبة.. ذلك الساحر المجنون.

وكان الأعجب من ذلك أن السنطورى انضم إلى الجنازة عندما توسطت حى آل قاسم. بأى جرأة وقحة فعل؟! لكنه فعل بلا حياء وقال لعواطف: البقية فى حياتك يا عواطف!

وأدرك عرفة أن الرجل يمهد بذلك لطلبه القادم. والمهم أن حال الجنازة تغير فى غمضة عين إذ تسارع إليها الجيران والمعارف الذين منعهم الخوف حتى ملأت الطريق. وعاد السنطورى يقول: البقية فى حياتك يا عواطف!

فنظرت إليه فى تحدٍّ وقالت: تقتل القتيل وتمشى فى جنازته؟!

فقال السنطورى بصوت سمعه كثيرون: قيل مثل هذا لقاسم من قبلُ.

وتعالت أصواتٌ كثيرة وهى تقول: وحِّدى الله، الآجال بيد الله وحده!

فصاحت به عواطف: قُتل أبى بضربة يدك!

فقال السنطوري: الله يسامحك يا عواطف، لو كنت ضربته ضربةً حقيقية لقتل فى الحال، والحق إنى ما ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون بذلك.

واستبقت الحناجر قائلة: هوَّشه! ما لمسته يده، والله ما لمسه، وليأكل الدود عيوننا إن كنا كاذبين.

فهتفت عواطف: ربنا المنتقم!

فقال السنطورى بحلم ضُرب مثلًا عهدًا طويلًا: الله يسامحك يا عواطف.

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الهمس: خلى الجنازة تسير بسلام.

وما يدرى عرفة إلا ورجل من أعوان السنطورى يُدعى العضاض يهوى بكفه على وجهه ويصيح به: يا ابن المهبولة، ما أدخلك أنت بينها وبين المعلم؟!

التفت عرفة نحوه فى ذهول فتلقَّى ضربة أشد من الأولى، وآخر صفعه، وثالث بصق على وجهه، ورابع أخذ بتلابيبه، وخامس دفعه بقوة فسقط على ظهره، وسادس قال له وهو يركله: ستدفن فى القرافة إذا ذهبت إليها.

لبث مطروحًا على الأرض فى ذهول، وتجمع، وقام فى ألم غير يسير وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه. وكان جمع من الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون: «العجل وقع.. هاتوا السكين» رجع إلى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه. ونظر حنش إليه بأسًى وقال: قلت لك لا تذهب!

فصرخ فى حنق أهوج: اسكت، الويل لهم.

فقال له بلين وحزم معًا: اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام.

فصمت مليًا وهو ينظر إلى الأرض مفكرًا، ثم رفع وجهًا مكفهرًا بالإصرار المخيف وقال: سترانى متزوجًا بها أقرب مما تتصور!

— هذا هو الجنون بعينه.

— وسوف يرأس عجاج الزفة.

— إنك تبلل ثيابك بالكحول وترمى بنفسك فى النار.

أخشى عليك يا عواطف الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام

كان يقول أقوالًا تعد فى الحارة كفرًا فيقولون فى إشفاق: «الكبر.. اللهم احفظنا!»

أولاد حارتنا..
المجد واللعنة

عرفة

— وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة فى الخلاء.

ولزم داره لا يبرحها أيامًا، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القضبان. ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد فى دهليز ربعها وقال لها فى صراحة: يحسن بنا أن نتزوج فى الحال.

ولم تُفْجَأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت فى حزن: ستسبب موافقتى لك من المتاعب ما لا تحتمل.

فقال بثقة: قَبِل عجاج أن يشرف حفلنا، ولذلك معنى لا يخفى علَيكِ.

واتخذت الخطوات فى تكتم شديد حتى تم كل شىء. وعلمت الحارة دون سابق إنذارٍ أن عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر، وانتقلت إلى داره، وأن عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج. ذُهل كثيرون وتساءل آخرون: كيف تم ذلك؟ كيف تجرأ عرفة عليه؟ وكيف أقنع عجاج بمباركته؟ أما أهل الخبرة فقد قالوا: يا داهية دقى.

واجتمع السنطورى بأعوانه فى قهوة آل قاسم، وعلم عجاج بذلك فاجتمع بأعوانه فى قهوة آل رفاعة. ودرَتْ الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدكاكين والنوافذ. وخرج السنطورى برجاله إلى الحارة فخرج عجاج برجاله كذلك. واحتدم الشر حتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبقَ على اندلاع اللهيب إلا لمسة. وصاح رجلٌ طيب من فوق السطح: ماذا أغضب رجالنا؟ فكروا قبل أن تجرى الدماء.

فصاح عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطورى: لسنا غاضبين ولا داعى عندنا للغضب.

فقال السنطورى بغلظة: أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم، ولا يمكن أن يقرك فتوة على ما فعلتَ.

— وما الذى فعلت؟

فقال السنطورى وكأن الكلام يخرج من فمه وعينيه معًا: حميت رجلًا وهو يتحدَّانى.

— ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتًا وحيدة بعد وفاة أبيها، وأنا أشهد زواج كل رفاعى.

فقال السنطورى بازدراء: ما هو برفاعى، ولا يعرف أحد أباه، ولا هو نفسه، وقد تكون أنت أباه وقد أكونه أنا، أو أى متسول فى الحارة.

— لكنه يقيم اليوم فى حيى.

— ليس ذلك إلا لأنه وجد بدرومًا خاليًا!

— ولو!

فصرخ السنطورى بصوتٍ مدوٍّ: أعرفت أنك خرجت على حدود الزمالة؟

فصاح به عجاج: لا تصرخ يا معلم، الأمر لا يستوجب أن نتنافر كالديوك!

— لعله يستوجب.

فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد: اللهم طولك يا روح!

— عجاج.. انتبه لنفسك!

— ملعون أبو القفا.

— ملعون أبوك!

وارتفعت النبابيت لولا أن أدركها صوت كالخوار يصيح بلهجة آمرة: عيب يا رجال.

اتجهت الرءوس نحو مصدره، فرأوا المعلم سعد الله فتوة الحارة وهو يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف فى المنطقة بين الحيين وهو يقول: نزلوا النبابيت.

فهبطت النبابيت كرءوس المصلين، ونظر سعد الله مرة إلى السنطورى وأخرى إلى عجاج وقال: لا أحب الآن أن أسمع كلام أحد. تفرقوا بسلام، مذبحة من أجل مرة؟ يا خسارة الرجولة!

تفرق الرجال فى سكون، ورجع سعد الله صوب داره.

وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر بسلام، كانا يتابعان ما يدور فى الخارج بقلبَين واجفَين ووجهَين ممتقعَين، ولم يبتلَّ لهما حلق حتى سمعا صوت سعد الله بنبرته الآمرة التى لا ترد. تنهدت عواطف من الأعماق وقالت: ما أقسى هذه الحياة!

وأراد عرفة أن يبث فى نفسها شيئًا من الطمأنينة فقال وهو يشير إلى رأسه: أنا أعمل بهذا، هكذا كان جبل، وهكذا كان قاسم الماكر الداهية!

فازدردت ريقها بمشقة وقالت: ترى هل تدوم السلامة؟

ضمها إلى صدره فى مرح ظاهرى وقال: ليت كل زوجَين يسعدان مثلنا.

فطرحت رأسها على كتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة: ترى هل تنتهى المسألة عند ذلك؟

فنفخ قائلًا فى صراحة: أى فتوة لا يُؤمَن جانبه.

فرفعت رأسها وهى تقول: أعرف ذلك، وبى جرح لن يلتئم حتى أراه صريعًا.

وعرف من تعنى، ونظر فى عينيها بتفكير وقال: الانتقام فى مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة.

إن سلامتنا مهددة لا لأن السنطورى يود البطش بنا، ولكن لأن سلامة حارتنا كلها مهددة ببطش الفتوات، ولو تغلبنا على السنطورى فمن يضمن لنا ألا يتحرش بنا عجاج غدًا أو يوسف بعد غد؟ فإما أمن للجميع وإما لا أمن لأحد.

فابتسمت فى فتور متسائلة: أتريد أن تكون كجبل أو رفاعة أو قاسم؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون أن يجيب، فعادت تقول: أولئك كُلِّفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف.

فقال بضجر: جدنا الواقف؟! كل مغلوب على أمره يصيح كما صاح المرحوم أبوك: «يا جبلاوى!» ولكن هل سمعتِ عن أحفاد مثلنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعتِ عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنًا؟

فقالت ببساطة: إنه الكبر!

فقال بارتياب: لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر.

— يقال: إنه يوجد رجل فى سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من العمر. ربك قادر على كل شىء.

فصمت مليًا، ثم غمغم قائلًا: كذلك السحر فهو قادر على كل شىء!

فضحكت من غروره وهى تنقر بأصبعها على صدره وقالت: سحرك قادر على مداواة العين.

— وعلى أشياء لا تُحصى!

فتنهدت قائلة: يا لنا من مساطيل! نتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهددنا شىء!

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلًا: وقد يتمكن يومًا من القضاء على الفتوات أنفسهم، وتشييد المبانى، وتوفير الرزق لأولاد حارتنا كافة.

فتساءلت ضاحكة: هل يمكن أن يحدث ذلك قبل قيام القيامة؟

فرقّت عيناه الحادتان بنظرةٍ حالمة وقال: آه لو كنا جميعًا سحرة!

— لو!

ثم أردفت قائلة: فى زمنٍ قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك!

— وسرعان ما ولَّت. أما السحر فأثره لا يزول، لا تستخفى بالسحر يا عسلية العينين. إنه لا يقل عن حبنا خطورة، ويخلق مثله حياةً جديدة، ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا كان أكثرنا سحرة!

فتساءلت فى دعابة: وكيف يتأتى ذلك؟

ففكر طويلًا قبل أن يجيب قائلًا: إذا تحققت العدالة، إذا نفذت شروط الواقف، إذا استغنى أكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر.

— أتريدها حارة من السحرة!

وضحكت ضحكةً لطيفة واستدركت قائلة: وما السبيل إلى تنفيذ الشروط العشرة وجدُّنا قعيد الفراش، ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن يكلف أحدًا من أحفاده بعمل!

فنظر إليها نظرةً غريبة وتساءل: لماذا لا نذهب نحن إليه؟

فضحكت مرةً أخرى وقالت: هل تستطيع أن تدخل بيت الناظر؟

— كلا، ولكن ربما استطعت دخول البيت الكبير.

فضربت يده وهى تقول: كفاك مزاحًا حتى نطمئن على حياتنا أولًا!

فابتسم ابتسامةً غامضة وقال: لو كنت أحب المزاح ما عدت إلى حارتنا.

فأفزعها شىء فى نبرته، فحدجته بدهشة وهتفت: أنت تعنى ما تقول.

فطالعها بنظرةٍ صامتة فعادت تقول: تصور أن يقبضوا عليك فى البيت الكبير!

فقال بهدوء: ما العجب فى وجود حفيد فى بيت جده؟!

— قل إنك تمزح. رباه! ما لك تنظر جادًا هكذا؟! شيءٌ عجيب، لماذا تريد أن تذهب إليه؟

— ألا تستحق مقابلته المخاطرة؟

— كلمة ندت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقةً مرعبة؟!

فربت راحتها ليهدئ خاطرها وقال: مذ عدت إلى حارتنا وأنا أفكر وحدى فى أشياء لا تخطر ببال.

فتساءلت بتوسل: لم لا نعيش فى حالنا؟

— يا ليت! إنهم لا يتركوننا نعيش فى حالنا، ولا بد للإنسان من أن يؤمن حياته.

— إذن نهرب من الحارة.

فقال بإصرار: لا أهرب وفى يدى السحر!

وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه، وجعل يربت منكبها وهو يهمس فى أذنها: سنجد للكلام فرصًا كثيرة؛ أما الآن فليطمئن قلبك.

ترى جن الرجل أم أعماه الغرور؟ هكذا جعلت عواطف تتساءل وهى تراقب عرفة فى عمله وتفكيره. ومن ناحيتها هى لم يكن يكدر صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها فى الانتقام من السنطورى قاتل أبيها، والانتقام فى الحارة تقليدٌ مقدس من قديم الزمان. وحتى هذا التقليد المقدس يمكن أن تتناساه ولو على مضض إكرامًا للحياة السعيدة التى وهبها إياها الزواج. لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطورى ما هو إلا جزء من عمل كبير آلى على نفسه- كما خُيِّل إليها- القيام به ولم تفهمه. أيحسب أنه أحد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب؟ لكن الجبلاوى لم يعهد إليه بشىء، وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوى ولا بما تحكى الرباب. ومن المؤكد أنه بات يعطى السحر من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق. وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه وأسرته إلى مسائل عامة لا يُعنى بها أحد، كالحارة والفتونة والنظارة والوقف والريع والسحر. وكان يحلم أحلامًا عريضة عن السحر والمستقبل مع أنه كان الرجل الوحيد فى الحارة الذى لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله فى الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه.

ولكن كل هذا هان إلى جانب رغبته الجنونية فى التسلل إلى البيت الكبير.

— لماذا يا رجلى؟

— لأسأله المشورة فيما ينبغى أن تسير عليه الحارة.

— أنت تعلم بما ينبغى أن تسير عليه الحارة، وكلنا نعلم، فما الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك؟

— أريد معرفة شروط الوقف العشرة.

— ليست العبرة فى المعرفة ولكن فى العمل، فماذا تستطيع أن تفعل؟

— الحق إنى أريد أن أطَّلِع على الكتاب الذى طُرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات.

— وماذا يهمك فى ذلك الكتاب؟

— لا أدرى ما الذى يجعلنى أومن أنه كتاب سحر، وأعمال الجبلاوى فى الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون.

— وما الداعى إلى هذه المخاطر وأنت سعيد ورزقك موفور بغيرها؟

— لا تظنى أن السنطورى نسينا.. كلما خرجتُ كدت أتعثر فى نظرات رجاله الحانقة.

— حسبك السحر ودع البيت الكبير جانبًا.

— هناك الكتاب.. كتاب السحر الأول.. سر قوة الجبلاوى الذى ضنَّ به حتى على ابنه.

— قد لا يكون شيئًا مما تتصور. وقد يكون، والأمر يستحق المخاطرة.

وإذا به يخطو خطوةً حاسمة فى طريق الصراحة فقال لها: هكذا أنا يا عواطف، ما العمل؟ لست إلا ابنًا حقيرًا لامرأةٍ تعيسة وأبٍ مجهول، والكل يعرف هذا ويتندَّر به، ولكن لم يعد لى من هم فى الدنيا إلا البيت الكبير، وليس غريبًا على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده. وحجرتى الخلفية علمتنى ألا أومن بشىء إلا إذا رأيته بعينى وجرَّبته بيدى، فلا محيد عن الوصول إلى داخل البيت الكبير، وقد أجد القوة التى أنشدها وقد لا أجد شيئًا على الإطلاق، ولكنى سأبلغ برًا هو على أى حال خير من الحيرة التى أكابدها. ولست أول من اختار المتاعب فى حارتنا، كان بوسع جبل أن يبقى فى وظيفته عند الناظر، وكان بوسع رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وكان فى وسع قاسم أن يهنأ بقمر وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر.

فقال حنش بأسًى: ما أكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم فى حارتنا!

فقال عرفة بحدة: قليل منهم من عنده لذلك أسبابٌ وجيهة.

غير أن حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه. تبعه كظله فى الهزيع الأخير من الليل إلى الخلاء. ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له. كانت ليلةً مظلمة ظهر الهلال فى أولها ساعة ثم اختفى. سار الأخوان بلصق الجدران حتى بلغا السور الخلفى للبيت الكبير فيما يلى الخلاء. وقال حنش همسًا: كان رفاعة يقف فى مكاننا عندما ترامى إليه صوت الجبلاوى.

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدققًا: هكذا تقول الرباب، وسوف أعرف حقيقة كل شىء.

فأشار حنش إلى الخلاء وقال برهبة: وفى هذا الخلاء كلم الجبلاوى بنفسه جبل وأرسل خادمه إلى قاسم.

فقال عرفة بامتعاض:

وفيه أيضًا قُتِل رفاعة واغتُصبت أُمُّنا وضربت ولم يحرك جدك ساكنًا!

وحطَّ حنش مقطفًا به أدوات حفر على الأرض، ثم شرعا فى حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف. عملا بجد وعزم حتى امتلأ صدراهما برائحة ترابية. وتبين أن حنش لم يكن دون عرفة حماسًا، كأنما كانت الرغبة نفسها تدفعه وإن غلبه الخوف. ولم يكن رأس عرفة يعلو فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة: حسبنا هذا، الليلة.

ثم وثب إلى سطح الأرض معتمدًا على راحتيه ثم قال: علينا أن نسد الفوهة باللوح الخشبى ثم نغطيها بالتراب حتى لا ينكشف أمرها.

ثم رجعا مسرعَين والفجر فى أعقابهما. كان يفكر فى الغد؛ الغد العجيب، حين يسير فى البيت الكبير المجهول. ومن يدرى فلعله يلقى الجبلاوى ولعله يحادثه، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسرُّ كتابه. ذلك الحلم الذى لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذى تنفثه الجوَز. ومن يدرى فربما وجده وقد كبر وخرف وفقد ذاكرته، أو مات من زمنٍ بعيد دون أن يدرى أحد إلا الناظر، ولن يقطع فى هذه الأمور إلا المغامرة.

وفى البدروم وجد عواطف لا تزال ساهرة تنتظر، فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعسة وغمغمت: كأنك راجع من مقبرة!

فقال بمرح يدارى به قلقه: ما أحلاك!

وارتمى إلى جانبها، فقالت: لو كنتُ عندك شيئًا لما استهنتَ برأيى.

فقال مداعبًا: ستُغيِّرين رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدًا.

— لى فى السعادة فرصة وفى الهلاك ألف!

فضحك عرفة ثم قال: لو رأيتِ الأعين الحاقدة لأيقنتِ أن ما ننعم به من سلام ما هو إلا خيال.

ومزق سكونَ الفجر صواتٌ حاد، وتبعه عويل، فعبست عواطف وتمتمت: فأل غير حسن!

فهزَّ منكبيه باستهانة، ثم قال: لا تلومينى يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشىء عما أنا فيه.

— أنا؟!

فقال جادًا: عدت إلى الحارة مدفوعًا برغبة خفية إلى الانتقام لأمى. ولما وقع الاعتداء على أبيك تأصَّلت تلك الرغبة فى الانتقام من جميع الفتوات، ولكن حبى لكِ أضاف إليها جديدًا كاد يطمس على الأصل، وهو أن أقضى على الفتوات لا للانتقام، ولكن ليهنأ الناس بالحياة، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سرِّ قوَّته.

ورنت إليه بنظرةٍ طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء الذبالة الإشفاق الأليم من أن تفقده كما فقدت أباها، فابتسم إليها مشجعًا متوددًا، وكان العويل يستفحل فى الخارج.

شدَّ حنش على يد عرفة مودعًا والأخير فى أعماق الحفرة. وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض، وما زال فى زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير، استقبل أنفه شذا عجيبًا كأنه خلاصة الخلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة فى ندى الفجر. أسكره الشذا على رغم شعوره البالغ بالخطورة، ها هو ذا يتشمم الحديقة التى مات أدهم حسرةً عليها. ما يبدو منها إلا ظلامٌ ضارب تحت الأنجم الساهرة. وعليها صمتٌ رهيب يند عنه من آنٍ لآنٍ هسيس الأوراق المستجيبة

> كان الرجل الوحيد فى الحارة الذى لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله فى الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه

> لست إلا ابنًا حقيرًا لامرأةٍ تعيسة وأبٍ مجهول والكل يعرف هذا ويتندَّر به ولكن لم يعد لى من هم فى الدنيا إلا البيت الكبير

عرفة

للنسائم. ووجد الأرض طريةً رطيبة فبيت فى نيته أن يخلع نعلَيه عند تسلُّله إلى البيت كى لا يطبع على الأرض آثاره. تُرى أين ينام البواب والبستانى وغيرهما من سائر الخدم؟ وزحف على أربع فى حذرٍ شديد أن يحدث صوتًا متجهًا نحو البناء الذى بدا شبح هيكله متربعًا فى الظلام. ولاقى فى رحلته نحو البيت من الارتياع ما لم يلاقِ فى حياته على إيلافه خوض الظلمات والمبيت فى الخلاء والخرائب.

ومضى يزحف لصق الجدار حتى مسَّت يده أولى درجات السلم المفضى إلى السلاملك إن صدقت الرباب. هنا دفع الجبلاوى بإدريس ليطرده خارجًا. ذلك كان مصير إدريس جزاء تحديه لأمر أبيه، فما عسى أن يفعل الجبلاوى بمن يقتحم عليه داره ليسرق سرَّ قوته؟ ولكن مهلًا فإن أحدًا لا يمكن أن يتوقع تسلل لص إلى البيت الذى ظل آمنًا مدرعًا بمهابته طيلة الأعوام الماضية. دار زاحفًا حول الدرابزين ثم أخذ يرقى فى الدَّرَج على يديه وركبتيه حتى بسطة السلاملك. وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف نحو الباب الجانبى الذى تقول الرباب إنه يفضى إلى المخدع.

وبغتة سمع سعلة! سعلةً قادمة من الحديقة. فلبد أسفل الباب مرسلًا ناظريه نحو الحديقة، فرأى شبحًا يقترب من السلاملك. كتم أنفاسه لأنه خيل إليه أن اضطراب قلبه سيُسمع مدويًا. وأخذ الشبح يقترب ومضى يرقى فى الدرج. لعله الجبلاوى نفسه. ولعله يضبطه متلبسًا بجريمته كما ضبط أدهم من قبلُ فى الساعة نفسها على وجه التقريب. وبلغ الشبح بسطة السلاملك على بعد ذراعين من مكمنه. لكنه مضى إلى الجانب الآخر من السلاملك، ورقد على شىء يشبه الفراش! خفَّ التوتر مخلفًا وراءه إعياء. ولعل الشبح لم يكن إلا خادمًا ذهب لقضاء حاجة ثم عاد إلى مرقده وها هو ذا يعلو شخيره. استردَّ شيئًا من جرأته فرفع يده متحسسًا موضع الأُكرة حتى عثر عليها، وأدارها بهوادة، ومضى يدفع الباب برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلًا ورد الباب وراءه. وجد نفسه فى ظلمةٍ حالكة، فأجال يده أمامه حتى مس أولى درجات السلم، وجعل يصعد فى خفة الهواء.

انتهى إلى ردهةٍ طويلةٍ مضاءة بمصباح فى كوة الجدار. وكانت تنعطف يمينًا إلى الداخل، وتمتد يسارًا بعرض البيت، ويتوسطها باب المخدع مغلقًا. عند ذاك المنعطف وقفت أميمة، ومن موقفه انطلق أدهم، وها هو ذا ينطلق وراء الشىء نفسه. تراكمت على صدره الرهبة، فنادى إرادته وجرأته، وكان من السخرية أن يرجع. قد يظهر خادم فى أى لحظة، وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على كتفه، فما أجدره بأن يسرع!

سار على أطراف أصابعه نحو الباب. أدار المقبض اللامع فدار مع يده، ودفع الباب فانفتح برفق، ثم تسلل رادًا الباب وراءه. أسند ظهره إلى الباب فى ظلام لا يرى فيه شيئًا، وتنفس بحذر وكأنما يضنُّ بأنفاسه. وعبثًا حاول أن يرى شيئًا. وبعد قليل شم رائحة بخور زكية أفعمت قلبه قلقًا وحزنًا غريبًا لم يدرِ له من سبب، ولم يعد يشك فى أنه فى مخدع الجبلاوى. متى يألف الظلمة؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل؟ وكيف يشعر بأنه سينهار إلى الحضيض إذا لم يستمسك بكل ما أوتى من قوة وعزم وجرأة؟! وتوعد نفسه بالهلاك إذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق. وتذكر السحب فى جريانها الذى يرسم لها أشكالًا غريبة بطريقةٍ عفوية فيرسم جبلًا كما يرسم قبرًا. ومس الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشدًا وسار بحذائه متقوسًا حتى لمس كتفه مقعدًا.

لكن حركةً مفاجئة ندت من ركن الحجرة البعيد تصلبت لها شراييته. لبد وراء المقعد متجه العينين نحو الباب الذى دخل منه. وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب. وتوقع أن يغمر الظلماءَ نور وأن يرى الجبلاوى واقفًا حياله. سيسجد عند قدمَيه مستعطفًا ويقول له: إنى حفيدك، لا أب لى، ولا هدف إلا الخير، فافعل بى ما تشاء.

رأى على رغم الظلمة شبحًا يقترب من الباب. ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب إلى ما وراءه. وخرج الشبح تاركًا الباب مواربًا واتجه يمنة فتبينه على ضوء المصباح الخارجي؛ امرأةً عجوزًا سوداءُ نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن أن تُنسى. ترى أهى خادم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الحجرة من جناح الخدم؟ ونظر من جانب المقعد إلى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب، فميز أشباح المقاعد والكنب، وتراءى له فى الصدر رسم فراشٍ كبير ذى عمد وناموسية، يليه عند قدميه فراشٌ صغير لعله هو الذى غادرته العجوز. لن يكون هذا الفراش الفخم إلا للجبلاوى. إنه نائم الآن هناك غير دارٍ بجريمته. كم يود أن يلقى نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب المواربِ الذى ينذر بعودة الذاهبة.

ونظر إلى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقًا على سره الرهيب. هكذا تطلع إليه أدهم فى القديم فله الرحمة. وزحف وراء المقاعد متناسيًا الجبلاوى نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير. لم يستطع مقاومة الإغراء فرفع يده حتى دس أصبعه فى ثقب المفتاح ثم ضغط إلى أسفل جاذبًا إياه إليه فأطاع. وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالًا وإحساسًا بالفوز.

وإذا بالضوء الضئيل يختفى وتغرق الحجرة مرةً أخرى فى الظلام. وسمع مرة أخرى كذلك وقع الأقدام الخفيفة، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة، ثم ساد الصمت. وانتظر متصبرًا حتى تنام العجوز. ومضى يمعن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم يرَ شيئًا. واقتنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده، إذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتملأ الدنيا صراخًا ثم يكون الوداع. ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التى سيطر بها جده على الخلاء والناس فى زمانه الأول. إن أحدًا قبله لم يتصور أن الكتاب كتاب سحر لأن أحدًا قبله لم يمارس السحر.

وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجذب الباب، ثم تسلل زاحفًا ورده وراءه. وقف فى حذر وهو يتنفس فى عمق ليريح شيئًا ما أعصابه المرهقة. لماذا ضنَّ الجبلاوى على أبنائه بسرِّ كتابه؟ حتى أحبُّهم إلى قلبه أدهم! هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوانٍ، بعد إشعال شمعة. وقديمًا أشعل أدهم الشمعة، وها هو ذا مجهول الأب يشعلها مرةً أخرى فى الموقف نفسه، وسوف تُغنى الرباب بهذا إلى الأبد. أشعل الشمعة فرأى عينَين تنظران إليه. على رغم ذهوله أدرك أن العينين لعجوز أسود يرقد على فراش فى مواجهة الداخل. وعلى رغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التى ربما كان أحدثها صوت حك عود الثقاب، وبحركة غير إرادية ولا شعورية انقض عليه فأطبق بيمناه على رقبته وشد بكل قوة أعصابه. تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه فى بطنه وضاعف من قوة الضغط على عنقه. وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام. وفى الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى تراخت أصابعها.

وتراجع لاهثًا حتى التصق ظهره بالباب. ومرَّت الثوانى وهو فى جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب. سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته إذا لم يتغلب على ضعفه. وناداه الهرب كقوة لا قِبَل له بها. لن يستطيع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثري؛ الكتاب المشئوم. ولا شجاعة عنده ليشعل الشمعة من جديد؛ العمى أحب إليه من ذلك. وشعر بألم فى ساعدَيه لعله من أثر أظافر الرجل عند المقاومة اليائسة. وارتعد جسده لتلك الفكرة. كانت جريمة أدهم العصيان، أما جريمته هو فالقتل؛ قَتْلُ رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببًا. وهو قد جاء سعيًا وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدرى مجرمًا. واتجه رأسه فى الظلام إلى الركن الذى ظن الكتاب معلقًا به. ودفع الباب ثم تسلل وهو يرده وراءه. وزحف بحذاء الجدار إلى الباب. وتريث وراء المقعد الأخير. لا يرى فى هذا البيت إلا الخدم فأين سيده؟ ستحول هذه الجريمة بينهما إلى الأبد. وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه.

وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه وخيل إليه أنه ينقضُّ عليه فى ضوضاء صاخبة ووميض صارخ. أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه. وهبط السلم فى ظلمة حالكة. وعبر السلاملك إلى الحديقة وقد قلَّ من الإعياء والحزن حذره. وإذا بالنائم فى السلاملك يستيقظ متسائلًا: «مَن؟!» فلبد عرفة لصق الجدار أسفل السلاملك وقد أمده الفزع بقوة. ونادى الصوت كرةً أخرى فأجابت قطة بموائها. لبث فى مكمنه وهو يخشى أن يساق إلى جريمةٍ جديدة.

ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة الخلفية حتى السور، وراح يتحسس موضع الثغرة حتى عثر عليها. ودخلها زحفًا كما جاء، ولما بلغ النهاية أو كاد ارتطم بقدم! وإذا بالقدم تركله فى رأسه بسرعة فاقت خاطره.

وثب على صاحب القدم فاشتبكا فى صراع لم يدم طويلًا، إذْ ندت عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف فى ذهول: حنش؟!

تعاونا على الخروج معًا إلى سطح الأرض وقال حنش: طالت غيبتك فدخلت لأتنسم الأخبار.

فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة: أخطأتَ كعادتك ولكن هلمَّ بنا.

عادا إلى الحارة المستغرقة فى النوم. ولما رأته عواطف هتفت: اغتسل.. رباه.. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك!

فارتعد لكنه لم يجب. ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمى عليه. وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش. جلس على الكنبة بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوى. ولم يعد يتحمل عبء سره وحده فقصَّ عليهما ما وقع له فى رحلته العجيبة. وانتهى والأعين تحملق فيه برعب ويأس. وهمست عواطف: كنتُ ضد الفكرة من أول الأمر.

غير أن حنش قصد أن يخفف من وقع الكارثة فقال: ليس فى الإمكان تجنب مثل هذه الجريمة!

فقال عرفة بحزن: لكنها أبشع من جرائم السنطورى وسائر الفتوات!

فقال حنش: هيهات أن تتجه الظنون إليك.

— لكنى قتلت عجوزًا لا ذنب له، ومَن يدري؟! فلعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى إلى قاسم!

وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير حتى قالت عواطف: ألا يحسن بنا أن ننام؟

فقال عرفة: ناما أنتما، أما أنا فلا نوم لى الليلة.

وانحطَّ الصمت مرةً أخرى فوق رءوسهم. وإذا بحنش يسأله: ألم تلمح الجبلاوى أو تسمع صوته؟

فهزَّ رأسه فى ضيق قائلًا: كلا!

— لكنك رأيت فى الظلام فراشه!

— كما نرى بيته!

فقال حنش فى حسرة: ظننتُ غيابك انقضى فى محادثته!

— ما أسهل الخيال خارج البيت!

فقالت عواطف بقلق: أنت تبدو كالمحموم، ومن الأفضل أن تنام.

— ومن أين يجىء النوم؟

لكنه شعر بصدق قولها فيما ينتابه من حرارة وذهول. وعاد حنش يقول بحسرة: كنتَ على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها!

وتقلَّص وجهه من الألم فقال حنش: يا لها من رحلةٍ شاقة وخاسرة!

— نعم!

ثم بنبرةٍ جديدةٍ حادة: لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شىء سوى السحر الذى بين أيدينا! ألا ترى أننى غامرت برحلةٍ جنونية جريًا وراء فكرة ربما كانت أبعد ما يكون عن ظنى؟!

— نعم، لم يقل غيرك أحد إن كتابه المشهور كتاب سحر.

فقال عرفة وقد بدا أكثر من قبلُ أنه يكابد حال اضطراب فى العقل والنفس: تجربة الزجاجة ستنجح أقرب مما تتصور، وستكون جدَّ نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس!

وأنذر الصمت المخيف بالعودة، فقال حنش: ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول إلى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة!

فقال عرفة بحماس: السحر لا نهاية له، ليس بين يديَّ منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع أو الهجوم، أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال.

فقالت عواطف فى ضجر: ما كان ينبغى أن تفكر إطلاقًا فى تلك المغامرة، جدنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى، وما كنت لتفيد شيئًا من محادثته لو وقعت، ولعله نسى الوقف والنظار والفتوات والأحفاد والحارة!

وغضب عرفة بلا سبب ظاهر، ولكن حالته الطارئة كانت تبرر كل غريب، وقال بحدة: هذه الحارة المغرورة الجاهلة! ماذا تدرى من الأمر؟ لا شىء. ليس لديها إلا الحكايات والرباب، وهيهات أن تعمل بما تسمع. ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما هى إلا مأوى البلطجية والمتسولين، وكانت فى البدء مرتعًا قفرًا للحشرات، حتى حلَّ بها أكبر قاطع طريق رهيب وهو جدكم الواقف!

وأجفل حنش، على حين بللت عواطف خرقة وهمَّت بوضعها على جبينه، ولكنه أبعد يدها بحدة وقال: أنا عندى ما ليس عند أحد، ولا الجبلاوى نفسه، عندى السحر، وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.

قالت عواطف بتوسل: متى تنام؟

— عندما تخمد النار المشتعلة فى رأسى.

فتمتم حنش بإشفاق: أوشك الصبح أن يطلع.

فهتف عرفة: فليطلع، ولن يطلع حتى يقضى السحر على الفتوات، ويطهر النفوس من عفاريتها، ويجلب من الخير ما يعجز الوقف عن جزء منه، ويصير هو الغناء المنشود الذى كان أدهم يحلم به.

وتنهد من أعماقه، ثم طرح رأسه على الجدار فى إعياء، فأمَّلت عواطف أن يجىء النوم عقب ذلك. وإذا بصوت يجلجل فى السكون بقوة هزت النفوس. وتبعته أصوات صراخ وعويل. وثب عرفة قائمًا وهو يقول برعب: جثة الخادم اكتُشفت!

فقالت عواطف من حلق جاف: مَن أدراك أن الأصوات قادمة من البيت الكبير؟

وجرى عرفة إلى الخارج فتبعاه على الأثر. وقفوا أمام الربع برءوس متجهة نحو البيت الكبير.

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح. وفتحت نوافذ وأطلت رءوس، واتجهت جميعًا نحو البيت الكبير. وجاء رجل من أقصى الحارة مهرولًا نحو الجمالية فلما مرَّ بهم سأله عرفة: ماذا جرى يا عم؟

إن أحدًا قبله لم يتصور أن الكتاب كتاب سحر لأن أحدًا قبله لم يمارس السحر

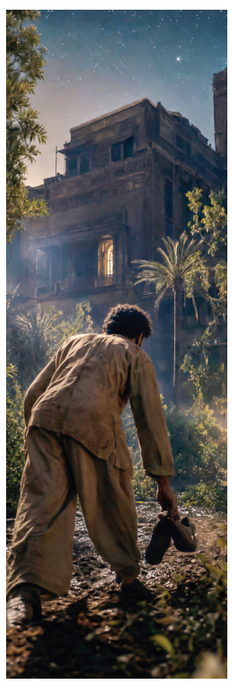

هذه الحارة المغرورة الجاهلة! ماذا تدرى من الأمر؟ لا شىء ليس لديها إلا الحكايات والرباب

عرفة

فأجابه دون توقف: لله الأمر، من بعد العمر الطويل مات الجبلاوى!

انقلب ثلاثتهم إلى البدروم، وعرفة لا تكاد قدماه تحملانه، فانحطَّ على الكنبة وهو يقول: الرجل الذى قتلته كان خادمًا أسود تعيس المنظر، وكان نائمًا فى الخلوة.

لم ينبس أحد منهما، ودفنا نظريهما فى الأرض متحاشيَين عينَيه الزائغتين، فقال بحدة: أراكما لا تصدقان! أقسم لكما إننى لم أقترب من فراشه.

فتردد حنش مليًا لكنه شعر بأن الكلام خير على أى حال من تركه للصمت فقال بحذر: لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة؟

فهتف بيأس: أبدًا، أنت لم تكن معى!

فهمست عواطف بخوف: أخفت من صوتك.

وغادرهما مهرولًا إلى الحجرة الخلفية، وقعد فى الظلام وهو يرتجف من الاضطراب. أى جنون دفعه إلى تلك الرحلة المشئومة؟! أجل كانت رحلةً مشئومة. إن الأرض تميد به وتنفث من جوفها الأحزان. ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة.

وأشرق أول شعاع للشمس، فإذا الناس جميعًا مجتمعون فى الحارة حول البيت. وتسربت الأخبار وشاعت، وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورةً قصيرة ثم عودته إلى بيته. وتناقل الناس أن لصوصًا سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفى، فقتلوا خادمًا أمينًا، ولما علم الجبلاوى بالخبر تأثر تأثرًا لم تحتمله صحته الواهية فى تلك الذروة من العمر ففاضت روحه. وثار الغضب بالنفوس حتى غطى دخانه الأسود على الدموع والصراخ. وهتف عرفة لما بلغته الأنباء بزوجه وحنش: ها هى ذى الأنباء تصدقنى!

ثم ذكر من توَّه أنه على أى حال تسبب فى موته، فلاذ بصمت الخجل والألم. ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت: فليرحمه الله!

وقال حنش: لم يمت ناقص عمر!

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة: لكنى أنا سبب موته! أنا من دون أحفاده جميعًا حتى الأشرار منهم وما أكثرهم!

فبكت عواطف وهى تقول: ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء.

وإذا بحنش يتساءل فى قلق: ألا يمكن أن يُستدلَّ علينا؟

فهتفت عواطف: فلنهرب!

فأشار إليها عرفة حانقًا وهو يقول: وبذلك نقدم أسطع دليل على جريمتنا!

وترامت من الطريق المحتشد أصواتٌ متلاطمة: يجب قتل الجانى قبل دفن الرجل!

— يا ألعن جيل فى حارتنا، حتى كبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة ماضينا، وحتى إدريس نفسه، علينا اللعنة إلى يوم القيامة.

— ليس القتلة من حارتنا، من ذا يتصور ذلك؟!

— سوف يُعرَف كل شىء.

— علينا اللعنة إلى يوم القيامة.

واشتد اللطم والندب، حتى انهارت أعصاب حنش فقال: وكيف نبقى فى الحارة بعد اليوم؟!

واقترح آل جبل أن يُدفن الجبلاوى فى مقبرة جبل؛ لاعتقادهم من ناحية أنهم أقرب نسبًا إليه من الآخرين، ولأنهم كرهوا أن يدفن فى المقبرة التى تضم إدريس فيما تضم من رُفات أسرة الواقف من ناحية أخرى. وطالب آل رفاعة أن يُدفن فى القبر الذى دَفنَ فيه رفاعة بيديه! وقال آل قاسم: إن قاسم خير أحفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم.

وكادت أن تقع فتنة فى الحارة ولما يُدفن الرجل. لكن الناظر قدرى أعلن أن الجبلاوى سيُدفن فى المسجد الذى أقيم فى مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير. ولاقى هذا الحل ارتياحًا عامًا ملحوظًا وإن أسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة جنازة الجد كما حرموا من قبلُ من مشاهدة الرجل فى حياته. وتهامس آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوى سيدفن فى القبر الذى دَفن فيه رفاعة بيديه. لكن أحدًا غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك أن يلتحم فى معركة بالسنطورى. وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح منذرًا: سأكسر رأس أى مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين!

ولم يشهد الغسل إلا خدمه المقربون. وهم الذين كفنوه وأودعوه نعشه. وحملوا النعش إلى البهو الكبير الذى شهد أخطر أحداث الأسرة كعهده بالنظارة إلى أدهم وثورة إدريس عليه. ثم دعا للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم. ووارى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب. وفى المساء أمَّ السرادقَ جميع أولاد الحارة. وذهب إليه عرفة وحنش فيمن ذهب من آل رفاعة. وبدا وجه عرفة الذى لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته كوجه ميت. ولم يكن للناس من حديث إلا أمجاد الجبلاوى، قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة، صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة. وبدا عرفة حزينًا ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال. ذلك الذى اقتحم البيت غير مبالٍ بجلاله. الذى لم يتأكد من وجود جده إلا عند موته! الذى شذَّ عن الجميع ولوَّث يديه إلى الأبد.

وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة؟ إن مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفى. القضاء على الناظر والفتوات وإنقاذ الحارة من شرورهم لا يكفى. تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفى. تعليم كل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفى. شيءٌ واحد يكفى، هو أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى! الجبلاوى الذى قَتْلُه أسهل من رؤيته. فلتهبه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف فى قلبه. وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة. ولكن آه ثم آه! لم يأثم أحدهم كما أثم. وكان الفتوات يجلسون واجمين، يركبهم الخزى والهوان. ستقول الحواري: إن الجبلاوى قُتل فى بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون؛ لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام، الويل والموت يطلان من عيونهم!

وعندما عاد عرفة إلى البدروم فى آخر الليل جذب عواطف إليه وسألها فى استغاثة يائسة: عواطف، صارحينى برأيك، هل ترينني مجرمًا؟

فقالت برقَّة: أنت رجلٌ طيب، أنت أطيب مَن صادفت فى حياتى، ولكنك أتعسهم حظًا!

فأغمض عينَيه وهو يقول: لم يتجرع أحد قبلى الألم كما تجرعته.

— نعم.. أعرف ذلك.

وقبلته بشفتَين باردتَين وهمست: أخشى أن تحل بنا اللعنة.

فحوَّل عنها وجهه، وقال حنش: لست مطمئنًا، سيكتشف أمرنا اليوم أو غدًا. لا أتصور أن يُعرف كل شىء عن الجبلاوى، أصله، وقفه، سيرته فى أبنائه، اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم، وأن يُجهل فقط موته!

فنفخ عرفة فى ضيق وسأله: هل عندك حلٌّ غير الهرب؟

فلزم حنش الصمت، فعاد الآخر يقول: أما أنا فعندى خطة، غير أنى أود أن أطمئن إلى نفسى قبل الشروع فى تنفيذها، إذ لا أستطيع أن أعمل إن كنت مجرمًا.

فقال حنش بفتور: إنك بريء.

فقال بحدة: سأعمل يا حنش، لا تخف علينا، فإن الحارة ستشغل عن الجريمة الكبرى بالأحداث، ستقع عجائب، وستكون ذروة العجائب أن تعود الحياة إلى الجبلاوى.

تأوَّهت عواطف، أما حنش فقال مقطبًا: هل جننت؟

فقال بصوت المحموم: إن كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت، موته أقوى من كلماته. إنه يوجب على الابن الطيب أن يفعل كل شىء، أن يحل محله، أن يكونه، أفهمت؟!

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد أن سكت آخر صوت فى الحارة. أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرَّة العينين من البكاء، وكانت تقول فى تسليم من لا حيلة له: فلتحرسك العناية.

أما حنش فتساءل فى إصرار: لم لا أصحبك؟!

فقال عرفة: الهرب أيسر على واحد منه على اثنين.

فقال له ناصحًا وهو يربت ظهره: لا تستعمل الزجاجة إلا عند اليأس.

فأومأ برأسه موافقًا وذهب. ألقى نظرة على الحارة الغارقة فى الظلام ثم مضى نحو الجمالية. ودار دورةً كبيرة شملت حارة الوطاويط والدرَّاسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير، حتى انتهى إلى سور بيت سعد الله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال. واتجه نحو موضع فى منتصف السور، وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص فى الممر الذى دأب على حفره- هو وحنش- ليلة بعد أخرى. زحف على بطنه حتى نهايته، ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التى تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة. كمنَ وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى فى البيت نافذةً مغلقة تنضح بضوءٍ خافت، أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام إلا نور نافذة المنظرة الساهرة. ومن المنظرة ترامت بين آونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة. استلَّ من صدره خنجرًا ولبث متوثبًا والوقت يمر أثقل من الهموم. لكن الغرزة انفضَّت عقب وصوله بنصف ساعة. فتح بابها وخرج الرجال تباعًا نحو الباب الخارجى المفضى إلى الحارة والبواب يتقدم بفانوس فى يده. وأغلق الباب وعاد البواب متقدمًا سعد الله نحو السلاملك. تناول عرفة من الأرض حجرًا بيسراه، وتسلل متقوسًا والخنجر بيمناه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعد الله بارتقاء أول درجة من درجات السلم، فانقضَّ عليه وأغمد خنجره فى ظهره فوق القلب. ندت عن الرجل صرخة ثم تقوض بناؤه.

التفت البواب مذعورًا لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه، ثم جرى عرفة مسرعًا جهة السور الذى جاء منه. وصرخ البواب صرخةً مدوية. وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت أصوات فى الداخل وفى آخر الحديقة. وعثر عرفة فى جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة، فسقط على وجهه وهو يحس بألم يهرسه فى ساقه وكوعه، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفًا. وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام. رمى بنفسه فى النفق وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء، ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقًا.

وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحًا تندفع نحوه وسمع صوتًا يصيح: «مَن هنا؟!» فضاعف من سرعته على رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفى للبيت الكبير. وعندما عبر الفراغ الذى يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح أضواء كالمشاعل وسمع ضجة فاندفع فى الخلاء مُتَسَمِّتًا سوق المقطم. وشعر بأن الألم سيقهره عاجلًا أو آجلًا، وبأن أقدام المطاردين تقترب وأصواتهم تتعالى صارخة فى السكون «امسك.. حلِّق!» عند ذاك أخرج الزجاجة من عبه، الزجاجة التى قضى الشهور فى تجربتها. ثم توقف عن الجرى واستقبل القادمين بوجهه، وأحدَّ بصره حتى تراءت له أشباحهم ثم قذف الزجاجة عليهم. وما هى إلا ثانية حتى دوَّى انفجار لم تعرفه أذن من قبلُ. وتتابعت صرخات وتأوهات. وواصل جريه وقد كفَّت الأقدام عن مطاردته. وعند حافة الخلاء ارتمى على الأرض وهو يلهث ويئنُّ.

لبث فى ألم وعجز وحيدًا تحت النجوم. ونظر وراءه فلم يرَ إلا ظلامًا وصمتًا. وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده ثم جففها فى الرمال. وشعر بأنه ينبغى أن يذهب مهما كلفه الأمر، فقام معتمدًا على يديه، وسار متمهلًا نحو الدرَّاسة. وفى أول الدرَّاسة رأى شبحًا قادمًا فنظر نحوه بحذر وخوف، ولكن القادم مر به دون أن يلتفت إليه فتنهد فى ارتياح. ومضى راجعًا فى نفس الدورة التى جاء بها. ولما اقترب من حارة الجبلاوى ترامت إلى أذنه ضجةٌ حارة غير مألوفة فى ذلك الهزيع من الليل. خليط من الأصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تتطاير فى الظلام. تردد مليًا ثم تقدم ملتصقًا بالجدران. وألقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقًا كثيرًا متجمعًا فى الآخر فيما بين بيتى الناظر وسعد الله على حين بدا حى قاسم خاليًا مظلمًا. وتسلل بحذاء الجدار حتى غيبه الربع.

ارتمى بين عواطف وحنش، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة المملوء بالماء، وراحت تغسل الجرح وهو يعض على أسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم. وساعدها حنش وهو يقول بقلق: الغضب يشتعل فى الخارج كالنار.

لبث فى ألم وعجز وحيدًا تحت النجوم ونظر وراءه فلم يرَ إلا ظلامًا وصمتًا

عرفة

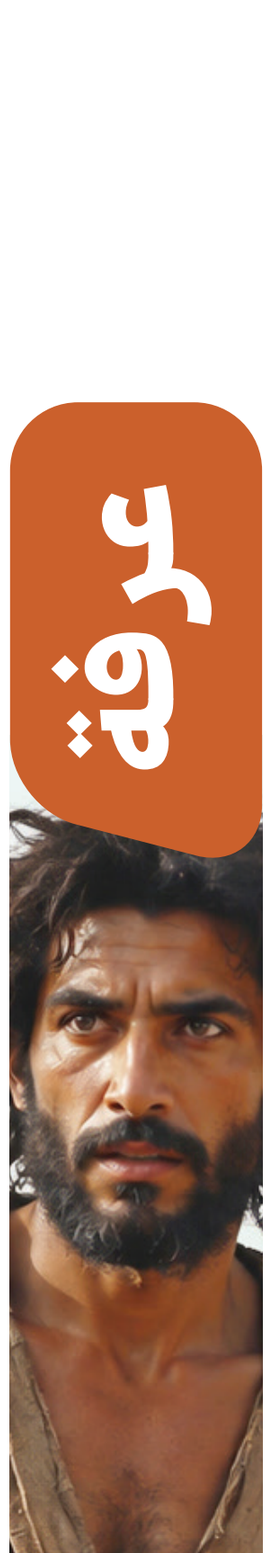

فسأله عرفة بوجهٍ متقبض: ماذا قالوا عن الانفجار؟

—وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد، لكنهم وقفوا ذاهلين أمام الجراح التى أصابت الوجوه والأعناق، وكادت حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله!

فقال عرفة: قُتل فتوة الحارة، وغدًا يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه!

ثم نظر إلى زوجته المنهمكة فى تضميد جراحه برقَّة وقال: عهد الفتوات موشك على الزوال، وأولهم قاتل أبيكِ!

لكنها لم تجب. وظلت عينا حنش تومضان فى قلق.

ثم أسند عرفة رأسه إلى يده من شدة الألم.

فى باكر الصباح طرق طارق باب البدروم، ولما فتحته عواطف رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر، فحيَّته برقّة ودعته إلى الدخول لكنه قال وهو ثابت فى مكانه: حضرة الناظر يطلب عم عرفة إلى مقابلته لاستشارةٍ عاجلة!

ذهبت عواطف لإبلاغ عرفة دون أن تجد للدعوة العالية السرور الخليق بها فى غير الظروف التى تعانيها.

ومضت فترةٌ قصيرة ثم جاء عرفة مرتديًا خير ملابسه، جلبابًا أبيض ولاسة منقطة ومركوبًا نظيفًا، غير أنه كان يتوكأ على عصًا لعرج طارئ غير خافٍ، فرفع يده تحية وقال: تحت الأمر.

فسار البواب وهو يتبعه. وكانت الكآبة تغشى الحارة من أولها إلى آخرها، فالأعين قلقة كأنما تتساءل فى خوف عما سيجىء به الغد من الكوارث، وأعوان الفتوات تجمعوا فى المقاهى يتشاورون، على حين تتابع العويل والنواح فى بيت سعد الله. ودخل بيت الناظر وراء البواب، فسارا فى الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلاملك. وتخيل أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدها كثيرة حتى ظن أن لا اختلاف إلا فى الدرجة، وقال لنفسه بحنق: «تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع الناس؟!» وسبقه البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير إليه بالدخول فمضى إلى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدرى جالسًا فى انتظاره فى أقصى المكان. وقف على بُعد ذراع منه وهو ينحنى احترامًا حتى تقوس ظهره. وبدا لعينيه من أول لمحة طويل القامة قويَّ البنيان ممتلئ الوجه باللحم والدم، ولما ابتسم إليه ردًا على تحيته افترَّ فمه عن أسنانٍ صفر قذرة لا تناسب بهاء منظره بحال. وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه على ديوانه، لكن عرفة اتجه إلى أقرب مقعد وهو يقول: عفوًا يا حضرة الناظر!

لكن الناظر أصرَّ على دعوته فأشار إلى الديوان قائلًا بلطف وأمر معًا: هنا.. اجلس هنا.

فلم يجد بدًا من الجلوس إلى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول لنفسه: لا شك فى أنها حالةٌ سرية! وتأكد ظنُّه حينما رأى البواب وهو يغلق باب البهو! ولبث صامتًا فى حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء، ثم قال الناظر فى نبرةٍ هادئة كالمناجاة: عرفة! لم قتلت سعد الله؟

تجمد البصر تحت البصر، وسابت المفاصل، ودار كل شىء، وانقلب المستقبل ماضيًا. ورأى الرجل ينظر إليه بعين الواثق فلم يشك فى أنه عرف كل شىء كالقضاء والقدر. ثم لم يمهله فقال بشىء من الحدة: لا ترتعب! لماذا تقتلون إذا كنتم هكذا ترتعبون؟ تمالكْ مشاعرك لتستطيع أن تجيبنى، وخبِّرنى صراحة لِمَ قتلت سعد الله؟

وكره الصمت فقال وهو لا يدرى ما يقول: سيدى.. أنا!

فقال الناظر بحدة: يا ابن الحقيرة أحسبتنى أهذى؟! أو أننى أتكلم دون دليل؟ أجبنى.. لماذا قتلته؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه فى أرجاء البهو بحركة لا معنى لها، فقال الناظر بصوتٍ بارد كالموت: لا مهرب يا عرفة! وفى الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك.

وكان النواح يشتد فى بيت الفتوة، أما آماله فقد وُوريت فى التراب. وفتح فمه دون أن يقول شيئًا.

فقال الناظر بقسوة: الصمت مهرب فى متناول اليد، سأدفع بك إلى الوحوش فى الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعد الله، وإن شئت أقول لهم هاكم قاتل الجبلاوى!

هتف بصوتٍ مبحوح: الجبلاوى؟!

— حافر الأنفاق وراء الأسوار الخلفية! نجوت فى المرة الأولى ووقعت فى الأخرى، لكن لماذا تقتل يا عرفة؟

وقال فى يأس بلا قصد ولا معنى: برىء يا حضرة الناظر، أنا بريء!

فقال فى تهكم: إذا أعلنتُ تهمتك فلن يطالبنى أحد بدليل. فى حارتنا الإشاعة حقيقة، والحقيقة حكم، والحكم هو الإعدام، ولكن خبِّرنى عما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟ ثم قتل سعد الله؟

هذا الرجل يعرف كل شىء. كيف؟ لا يدرى لكنه يعرف كل شىء. وإلا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعًا؟

— هل كنت تقصد السرقة؟

غضَّ بصره فى يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر فى غضب: انطق يا ابن الأفاعى!

— سيدى.

— لماذا تسعى إلى السرقة وأنت أفضل حالًا من كثيرين؟

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة: النفس أمَّارة بالسوء!

ضحك الناظر بظفر، أما عرفة فساءل نفسه فى حيرة: عما جعل الرجل يؤجل الفتك به إلى الآن! بل لِمَ لم يفضِ بسرِّه إلى أحد الفتوات بدلًا من استدعائه على ذلك النحو الغريب؟ وتركه الناظر لنفسه كأنما يعذبه، ثم قال: يا لك من رجلٍ خطير!

— أنا رجل مسكين.

— أيُعدُّ فى المساكين من يحوز سلاحًا كسلاحك الذى هزئ بالنبابيت؟

لا يبكى ميت على فقد بصره. هذا الرجل هو الساحر حقًا لا هو، وجعل الناظر يتلذذ بيأسه مليًا ثم قال: انضم أحد خدمى إلى مطارديك، وكان متأخرًا عنهم فلم يصبه سلاحك، ثم تبعك وحده فى هدوء فلم يُشعرك بمطاردته الخفية، ثم عرفك عند الدرَّاسة فلم يهاجمك خوفًا على نفسه من مفاجآتك، وسارع إليَّ فأخبرنى.

فقال عرفة بلا وعي: ألا يمكن أن يخبر أحدًا غيرك؟

فقال مبتسمًا: إنه خادم أمين.

ثم بنبرة ذات معنى: الآن حدثنى عن سلاحك.

أخذت الغيوم تتكشف لناظريه. الرجل يطمع فيما هو أثمن من حياته! لكن يأسه كان محبطًا. وأين المفر؟ قال بصوتٍ منخفض: هو أبسط مما يتصور الناس!

فقست نظرته وتجهَّم وجهه وقال: فى وسعى أن أفتش بيتك الآن، لكننى أتحاشى لفت الأنظار إليك، ألا تفهم؟

وسكت مليًا ثم أردف: لن تهلك ما دمت تطيعنى!

كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه، فقال عرفة وقد طفحت باليأس روحه: ستجدنى رهن مشيئتك.

— بدأتَ تفهم يا ساحر حارتنا، لو كان مقصدى قتلك، لكنت الساعة فى بطون الكلاب.

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلًا: دعنا من الجبلاوى وسعد الله وحدثنى عن سلاحك، ما هو؟

فقال بدهاء: زجاجةٌ سحرية!

فحدجه بنظرة ارتياب وقال: أفصح!

فقال وهو يسترد شيئًا من الطمأنينة لأول مرة: لغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها.

— ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة؟

فضحك باطنه ولكنه قال بجدٍّ ظاهر: ما قلت إلا الحق.

فنظر الرجل إلى الأرض قليلًا ثم رفع رأسه متسائلًا: ألديك منها كثير؟

— ليس لديَّ منها شىء الساعة!

فعض الناظر على أسنانه هاتفًا: يا ابن الأفاعى!

فقال عرفة ببساطة: فتش بيتى لترى صدقى بعينيك.

— أتستطيع أن تصنع مثلها؟

فقال بثقة: بكل تأكيد.

فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال، وقال: أريد منها كثيرًا.

فقال عرفة: سيكون لك منها ما تشاء.

وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة، وإذا بعرفة يقول بجرأة: سيدى يريد الاستغناء عن الفتوات الملاعين.

فومضت بعينى الرجل نظرةٌ غريبة وسأله: صارحنى بما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟

فقال عرفة ببساطة: لا شىء إلا حب الاستطلاع، وقد ساءنى مقتل الخادم الأمين عن غير قصد منى.

فحدجه بنظرة ارتياب وقال: تسببت فى موت الرجل الكبير!

فقال عرفة بحزن: شدَّ ما يتقطع قلبى حزنًا لذلك!

فهزَّ الناظر منكبَيه قائلًا: ليتنا نحيا مثله!

يا لك من منافق أثيم! لا شىء يهمك إلا الوقف! وقال: أمدَّ الله فى عمرك.

فعاد يسأله بارتياب: ألم تذهب إلا جريًا وراء الاستطلاع؟

— بلى.

— ولماذا قتلت سعد الله؟

فقال بصراحة: لأنى مثلك أود القضاء على جميع الفتوات.

فابتسم الرجل وقال: إنهم شرٌّ مستحكم!

لكنك فى الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف، لا لشرهم.

— بالحق نطقت يا سيدى.

فقال بإغراء: ستثرى فوق ما كنت تحلم.

فقال عرفة بمكر: ولا غاية لى إلا ذلك.

فقال الناظر بارتياح: لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم، تفرغ لسحرك فى حمايتى، وسيكون لك كل ما تشتهيه نفسك!

بدأتَ تفهم يا ساحر حارتنا لو كان مقصدى قتلك لكنت الساعة فى بطون الكلاب

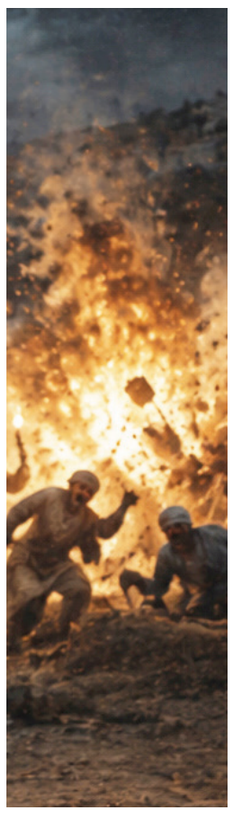

جلس ثلاثتهم على الكنبة، عرفة يقص ما حدث له وعواطف وحنش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع، حتى ختم عرفة حديثه المثير بقوله: لا اختيار لنا. إن جنازة سعد الله لم تخرج بعدُ، فإما القبول وإما الإبادة.

فقالت عواطف: وإما الهرب.

— لا مهرب من عيونه التى تحيط بنا.

— لن نكون فى كنفه آمنين.

تجاهل قولها كما يود أن يتجاهل أفكاره وتحول إلى حنش قائلًا: ما لك لا تتكلم؟

فقال حنش بجدٍّ وحزن: عدنا إلى هذه الحارة يوم عدنا بآمالٍ بسيطةٍ محدودة، أنت وحدك المسئول عن التغيُّر الذى وقع بعد ذلك، عن تعلقنا بالآمال الكبيرة، وكنت أعارض طموحك بادئ الأمر، ولكنى عاونتك دون تردد، وأخذت أقتنع بأرائك رويدًا رويدًا، حتى لم يعد لى من أمل إلا أمل حارتنا فى الخلاص والكمال. واليوم تفاجئنا بخطةٍ جديدة سنصبح بعدها آلةً رهيبة لاستذلال حارتنا: آلة لا يمكن أن تقاوَم ولا أن تُبيد وإن جاز أن يُقاتل فتوة أو يُقتل.

وقالت عواطف: ولا أمان لنا بعد ذلك، فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة كما يدبر الآن للفتوات.

كان مقتنعًا فى أعماقه بما يقولان ولا يَكفُّ عن التفكير فيه، لكنه قال وكأنما يحاور نفسه: سأجعله دائمًا فى حاجة إلى سحرى!

فقالت عواطف: ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد.

فقال حنش مؤيدًا: نعم، فتوة سلاحه زجاجة بدلًا من النبوت، واذكر مشاعره نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك.

واحتدَّ عرفة غضبًا فقال: ما شاء الله، كأننى الطامع وأنتما الزاهدان! إنما أنا الإيمان الذى أصبحتما به تؤمنان، وما سهرت الليالى فى الحجرة الخلفية وما عرَّضت نفسى للموت مرتين إلا لخير حارتنا. فإذا كنتما ترفضان ما فُرض علينا دون اختيار فأشيرا عليَّ ما يجب فعله.

ونظر إليهما بتحدٍّ غاضب فلم ينبس منهما أحد. وكان الألم يعتصره والدنيا تبدو كابوسًا خانقًا لعينيه. ودهمه شعورٌ غريب بأن ما يعانيه ما هو إلا انتقام لتهجمه القاسى على جده، فازداد ألمًا وحزنًا. وهمست عواطف بتوسل يائس: الهرب!

فتساءل بحدة وحنق: وكيف الهرب؟!

— لا أدرى! لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل إلى بيت الجبلاوى!

فنفخ يائسًا وقال بهدوء كالرثاء: الناظر الآن بانتظارنا، عيونه حولنا، كيف ندبر الهرب؟

وكان صمت، يا له من صمت، كصمت القبر الذى يضم الجبلاوى، فقال بتشفٍّ: لا أريد أن أتحمل الهزيمة وحدى.

فتأوَّه حنش قائلًا كالمعتذر: لا خيار لنا.

ثم بحرقة: قد يلد المستقبل فرصة للنجاة.

فقال عرفة بلبٍّ شارد: مَن يدرى؟!

ومضى إلى الحجرة الخلفية وحنش فى إثره. وأخذا يعبثان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها. وإذا به يقول: ينبغى أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية. وأن نسجل صورها فى كراسةٍ أمينةٍ سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب. ومن ناحيةٍ أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلُّم السحر، فما ندرى شيئًا عما يخبئه القدر لنا!

وواصلا عملهما بهمةٍ عالية. وحانت من عرفة التفاتة إلى صاحبه فرآه متجهمًا فلم يخفَ عليه سره، لكنه قال مداراة للموقف الغريب: ستقضى هذه القوارير على الفتوات!

فقال حنش فيما يشبه الهمس: لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا.

فقال دون أن تكفَّ يداه عن العمل: ماذا علمتك رباب الشاعر؟ وُجد فى الماضى رجالٌ أمثال جبل ورفاعة وقاسم، فماذا يمنع أن يجىء أمثالهم فى المستقبل؟

فقال حنش متنهدًا: كدت أحسبك فى بعض الأوقات أحدهم.

فضحك عرفة ضحكةً جافة مقتضبة وتساءل: وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتى؟

فلم يجب، فعاد الآخر يقول: لن أكون مثلهم فى ناحية واحدة على الأقل، وهى أنهم كانوا ذوى أتباع من أولاد حارتنا، أما أنا فلا يفهمنى أحد.

ثم وهو يضحك: كان فى وسع قاسم أن يكتسب تابعًا قويًا بكلمةٍ حلوة، أما أنا فتلزمنى أعوام وأعوام حتى أستطيع أن أدرِّب رجلًا على عملى وأجعل منه تابعًا.

وفرغ من تعبئة زجاجة فأحكم سدادتها وعرضها أمام ضوء المصباح فى إعجاب، ثم قال: هى اليوم ترعب الأفئدة وتدمى الوجوه بالجراح، وغدًا قد تقتل قتيلًا، قلت لك: إنه ليس للسحر من نهاية!

مَنْ فتوة حارتنا؟ مضى الناس يتساءلون عنه منذ رقد سعد الله فى قبره. وأخذ كل فريق يزكى رجُله. فآل جبل قالوا: إن يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسبًا بالجبلاوى. وقال آل رفاعة: إنهم حى أنبل من عرفته الحارة فى تاريخها، الرجل الذى دفنه الجبلاوى فى بيته وبيديه. وقال آل قاسم: إنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حيِّهم، ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تتجزأ يسودها العدل والأخوة.

وكالعادة بدأت الخلافات همسًا فى الغرز، ثم تطايرت فى الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشر المهالك ولم يعد فتوة يسير بمفرده، وإذا سهر فى قهوة أو غرزة أحاط به الأتباع مدججين بالنبابيت. وراح كل شاعر يدعو بالرباب إلى فتوة حيِّه. وتجهم أصحاب الدكاكين والباعة وكدر التشاؤم وجوههم. وتناسى الناس موت الجبلاوى ومقتل سعد الله بما ركبهم من هَم وتوجس الخوف، وحق لأم نبوية بياعة النابت أن تقول بأعلى صوت: قُطعت العيشة ويا بخت من كان الموت نصيبه.

وذات مساء ترامى صوت من فوق سطح بحى آل جبل وهو يصيح: يا أولاد حارتنا، اسمعوا واجعلوا العقل حكمًا بيننا وبينكم، حى آل جبل أقدم أحياء الحارة، وجبل أول رجالها الكرام، فلا مذلة لأحد إذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم.

فتعالت أصوات الاستهزاء من حيَّيْ آل رفاعة وآل قاسم، مصحوبة بقذائف السب واللعن، وما لبث أن تجمع الصغار أمام الربوع وراحوا ينشدون:

يا يوسف يا وش القملة،

مين قالك تعمل دى العملة.

واشتدت القلوب غلظةً وسوادًا. ولم يؤجل وقوع الكارثة إلا أن التناحر كان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معًا، وأنه كان لا بد من أن يتحد حيَّان أو أن ينسحب من التنافس حىٌّ مختارًا.

ووقعت أحداث بعيدًا عن الحارة ذاتها. فقد التقى بائعان فى بيت القاضى، أحدهما من آل جبل والآخر من آل قاسم، فاشتبكا فى معركةٍ حامية فقد فيها القاسمى أسنانه والجبلى عينًا. وفى حمام السلطان نشبت معركةٌ أخرى بين نسوة من آل جبل وآل رفاعة وآل قاسم وهن عرايا فى المغطس؛ فانغرست الأظافر فى الخدود والأسنان فى السواعد والبطون والأيدى فى الضفائر، وتتطايرت الأكواز وأحجار الحك وألياف التدليك وقطع الصابون.

وانجلت المعركة عن إغماء امرأتين وإجهاض ثالثة وبضُ أجساد لا حصر لها بالدم. وعند ظهيرة اليوم نفسه، عقب عودة المتعاركات تباعًا إلى الحارة، استؤنفت المعركة من جديد من فوق الأسطح، واستُعمل فيها الطوب والسباب الفاحش، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع صراخها إلى السحاب.

وإذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية إلى يوسف فتوة آل جبل ويدعوه إلى مقابلة الناظر. وحرص الفتوة على أن يقابل الناظر دون أن يدرى به أحد.

كانت الكآبة تغشى الحارة من أولها إلى آخرها فالأعين قلقة كأنما تتساءل فى خوف عما سيجىء به الغد

عرفة البيومي

واستقبله الناظر بلطف وطلب إليه أن يعمل على تهدئة الخواطر فى حيِّه وبخاصة أن ذلك الحى هو التالى موقعه لبيت الناظر. وعندما صافحه مودعًا قال له: إنه يتمنى أن يستقبله فى المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها! وخرج الرجل من بيت الناظر ثملًا بتأييده الصريح له، وآمن بأن الفتونة باتت فى متناول يديه. وما لبث أن ألزم حيه بالنظام. وتهامس الناس فى حيِّه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه. وتسربت من حيِّهم الأنباء إلى بقية الحارة فهاجت الخواطر.

ولم تمضِ أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطورى سرًا فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى. وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من آل قاسم وآل رفاعة فهاجموا حى آل جبل، فدارت معركةٌ شديدة، لكن يوسف وكثرة من أتباعه قُتلوا وهرب الباقون، وأذعن آل جبل للقوة يائسين. وحُدد العصر لإجراء القرعة المتفق عليها. وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالًا ونساءً إلى رأس الحارة أمام البيت الكبير، وامتدت جموعهم جنوبًا حتى بيت الناظر وشمالًا حتى بيت الفتوة الذى سيصبح ملكًا للفائز بالقرعة. وجاء السنطورى وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد. وتعانق عجاج والسنطورى أمام الجميع، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين: أنا وأنت أخوان، وسنبقى أخوين فى جميع الأحوال.

فقال السنطورى بحماس: على الدوام يا سيد الجدعان!

وقف الحيَّان متقابلين، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير. وجاء رجلان- أحدهما من آل قاسم والآخر من آل رفاعة- بمقطف مليء بالقراطيس فوضعاه وسط الفراغ ثم تقهقر كلٌ إلى قومه. وأعلن على الجميع أن القادوم هو رمز عجاج وأن الساطور هو رمز السنطورى، وأنه وضعت نماذج مصغرة منهما فى القراطيس مناصفة. وجىء بغلام ليأخذ- وهو معصوب العينين- من المقطف قرطاسًا. مد الغلام يده فى صمت متوتر ثم استردها بقرطاس. فتحه وهو لا يزال معصوب العينين وتناول ما فيه ورفع به يده فهتف القاسمية: الساطور.. الساطور.

مد السنطورى إلى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسمًا. وتعالى هتافٌ حار: يعيش السنطورى فتوة حارتنا.

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل إلى السنطورى مفتوح الذراعين، ففتح له السنطورى ذراعيه ليعانقه، لكن الآخر طعنه بسكين فى قلبه بمنتهى القوة والسرعة. سقط السنطورى على وجهه قتيلًا. سيطر الذهول لحظة ثم انفجر الصياح والوعيد والغضب.

وتلاقى الحيَّان فى معركةٍ دامية قاسية. لكن لم يكن هناك فى القاسمية من يستطيع الوقوف أمام عجاج، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة، وسقط من سقط، وجرى من جرى، ولم يجئ المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت لعجاج. وبينما ضج حى قاسم بالعويل، انطلقت الزغاريد من حى رفاعة، وراحوا يرقصون فى الطريق حول فتوتهم- فتوة الحارة- عجاج. وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحًا: هُس، اسمعوا! اسمعوا يا غنم!

تطلعوا فى عجب إلى مصدر الصوت فرأوا يونس بواب الناظر يسير بين يدَى الناظر نفسه الذى جعل يتقدم فى هالة من خدمه. مضى عجاج نحو موكب الناظر وهو يقول: محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم!

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى الحارة جميعًا: يا عجاج، لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة!

ذهل رجال آل رفاعة، وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب، وتساءل عجاج فى دهشة: ماذا يقصد حضرة الناظر؟!

فقال الناظر بقوة ووضوح: لا نريد فتونة ولا فتوة، دعوا الحارة تعيش فى أمان.

فهتف عجاج ساخرًا: أمان؟!

فسدد الناظر نحوه نظرةً قاسية، لكن الآخر تساءل فى تحدٍّ: ومن ذا يحميك أنت؟!

وإذا بالقوارير تنهال من أيدى الخدم على عجاج وأعوانه، ودوى الانفجارات يزلزل الجدران، وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه والأطراف وتفجر الدماء. وانقضَّ الفزع على النفوس كما تنقضُّ الحدآت على الفراخ، فطاشت العقول وسابت المفاصل. وسقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم. وتعالى الصوات فى حى آل رفاعة، وزغاريد الشماتة فى حيِّ آل جبل وآل قاسم. وتوسط يونس الحارة داعيًا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت، ثم صاح قائلًا: يا أولاد حارتنا، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه، فلا فتوة يذلكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم.

وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء.

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حى الرفاعية إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير، بذلك أمر الناظر وليس لأمره رد. وجدوا أنفسهم فى مأوى كالحلم. وراحوا يطوفون بالحديقة الغنَّاء والمنظرة الأنيقة، والسلاملك، والبهو، إلى غرف النوم والجلوس والسفرة فى الدور الثانى والسطح وما يزدحم بجدرانه وأركانه من بيوت الدجاج وبلاليص الأرانب وأعشاش الحمام. ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقيًا، وتشمموا روائح زكية. وراح عرفة يقول: صورةٌ صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار!

فتساءل حنش: وسحرك؟ ألا يعد من الأسرار؟

ولاح الذهول فى عينى عواطف وهى تقول: لا يحلم أحد بشىء كهذا.

وتغير الثلاثة منظرًا ولونًا ورائحةً. ولكن لم يكد المقام يستقر بهم حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء، قال أولهم: إنه البواب، وثانيهم: الطاهى، وثالثهم: البستانى، ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار، فعجب عرفة لهم وسألهم: من أذن لكم بالمجىء؟

فقال البواب إنابة عنهم: حضرة الناظر.

وسرعان ما دُعى عرفة إلى مقابلة الناظر فذهب من فوره. ولما جلسا جنبًا إلى جنب فوق الإيوان بالبهو قال قدري: سنتقابل كثيرًا يا عرفة فلا يزعجك استدعائى لك.

الحق قد أقلقه المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة: سيدى الخير والبركة!

— سحرك أصل الخير كله، ترى هل أعجبتك الدار؟

فقال عرفة فى حياء: هى فوق الأحلام، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا، واليوم جاءنا الخدم أشكالًا وألوانًا!

فتفرَّس الناظر فى وجهه وهو يقول: هم من رجالى أرسلتهم إليك ليخدموك وليحموك!

— يحموننى؟!

فقال قدرى وهو يضحك: نعم، ألا تعلم أن الحارة لا حديث لها إلا انتقالك إلى بيت الفتوة؟ ويقولون فيما بينهم: هو هو صاحب القوارير السحرية. وأهل الفتوات موتورون كما تعلم، والآخرون يموتون حسدًا؛ لذلك كله فأنت فى خطر محيط، ونصيحتى إليك ألا تأمن أحدًا أو تسير بمفردك أو تبتعد عن دارك!

تجهَّم وجهه. ما هو إلا سجين يحيط به الغضب والمقت. واستدرك قدرى قائلًا: لكن لا تخف فإن رجالى حولك، واستمتع بالحياة ما شئت فى بيتك وفى بيتى. ماذا تخسر؟ وما وراء ذلك إلا الخلاء والخرائب؟ ولا تنسَ أن أهل حارتنا يقولون: إن سعد الله قُتِل بالسلاح الذى قُتِل به عجاج، وإن الوسيلة التى تسلل منها القاتل إلى بيت سعد الله هى نفس الوسيلة التى تسلل منها إلى البيت الكبير من قبلُ، فقاتل عجاج وسعد الله والجبلاوى شخصٌ واحد هو عرفة الساحر.

فهتف عرفة متشنجًا: هذه لعنةٌ مسلطة على رأسى.

فقال الناظر فى هدوء: لا تخف ما دمت فى كنفى ومن حولك خدمى.

أيها اللئيم الذى أوقعنى فى سجنه، ما أردت السحر إلا للقضاء عليك لا لخدمتك، واليوم يمقتنى من أحبهم وأود خلاصهم، ولعلى أُقتَل بيد أحدهم. وقال برجاء: وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا!

فضحك قدرى هازئًا ثم تساءل: ولِمَ إذن كان القضاء على الفتوات؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة: إنك تتلمس سبيلًا إلى رضاهم؟! دعك من هذا، وتعوَّد مثلى على مقت الآخرين لك، ولا تنسَ أن ملاذك الحق هو رضاى عنك.

فقال فى قنوط: كنت وما زلت فى خدمتك!

ورفع الناظر رأسه نحو السقف كأنما يتسلى بتأمل زخارفه، ثم أعاد رأسه إليه قائلًا: أرجو ألا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك!

فهزَّ رأسه بالإيجاب فقال الرجل: وأن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية!

فقال عرفة بحذر: لسنا بحاجة إلى أكثر مما لدينا منها.

فدارى الآخر حنقه بابتسامة وقال: أليس من الحكمة أن ندَّخر منها عددًا موفورًا؟

لم يجب. ودهمه يأس. وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعًا؟ وسأله بغتة: سيدى الناظر، إذا كان مقامى يضايقك فاسمح لى بالذهاب إلى غير عودة.

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل: ماذا قلت يا رجل؟

فقال وهو يواجهه بنظرةٍ صريحة: أنا أعلم أن حياتى رهن بحاجتك إلىَّ.

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال: لا تظننى أستهين بذكائك، وأعترف لك بسلامة تفكيرك، لكن كيف توهمت أن حاجتى إليك تقف عند القوارير؟ أليس فى وسع سحرك أن يصنع أعاجيب أخرى؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلًا بجفاء: رجالك هم الذين أذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات، لست أشك فى ذلك، لكن يجب أن تذكر كذلك أن حياتك فى حاجة إلىَّ.

قطب الناظر متوعدًا لكن عرفة قال دون تردد: أنت اليوم لا فتوة لك، ولا قوة عندك إلا بالقوارير، وما لديك منها لا يغنى عنك شيئًا، فإذا مت أنا اليوم تبعتنى غدًا أو بعد غد.

مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى ارتعد جسمه. لكنه سرعان ما خفف من قبضتَيه، ثم سحبهما، ثم ابتسم ابتسامةً مقيتة وقال: انظر ما كانت ستدفعنى إليه سلاطة لسانك! بينما لا توجد لدينا دواع للخصومة، وفى وسعنا أن نستمتع بالنصر وبالحياة فى سلام.

تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة، على حين واصل الآخر حديثه قائلًا: لا تخف على حياتك منى، فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها. تمتع بالدنيا ولا تنسَ سحرك الذى يجب أن نجنى أزاهر ثماره، واعلم بأن من يغدر منَّا بصاحبه فقد غدر بنفسه!

تجهم وجهها عواطف وحنش وهو يعيد على مسامعهما ذلك الحديث فى البيت الجديد. وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة فى ظل حياتهم الجديدة. لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلت بما لذَّ وطاب من طعام شهى ونبيذ معتق. ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتزَّ جذع حنش وهو يقهقه. ومضيا فى حياتهما كما شاءت الظروف. كانا يعملان معًا فى حجرة وراء البهو أعداها للسحر. ودأب عرفة على تسجيل الرموز التى اصطلحا عليها فى كراسة لم يعلم بها سواهما أحد. ومرة قال له حنش فى أثناء العمل: يا لنا من سجناء!

فقال له محذرًا: اخفض من صوتك فإن للحيطان آذانًا.

مدَّ حنش بصره نحو الباب فى حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس: أليس من الممكن أن تصنع سلاحًا جديدًا نقضى به عليه من حيث لا يدرى؟

فقال عرفة بامتعاض: لن يتاح لنا أن نجربه سرًا بين هؤلاء الخدم، فهو لن يخفى عليه شىء من أمورنا. وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهل حارتنا قبل أن ندافع عن أنفسنا حيالهم!

— لماذا تعمل إذن بهذا الجد كله؟

فتنهد قائلًا: لأنه ليس لى إلا أن أعمل.

وكان يذهب عند الأصيل إلى بيت الناظر فيجالسه ويشاربه، ثم يعود ليلًا إلى داره فيجد أن حنش قد هيأ له فى الحديقة أو المشربية غرزةً صغيرة فيحششان معًا. ولم يكن معدودًا فى الحشاشين من قبلُ، ولكن التيار جرفه. وطارده الملل. وحتى عواطف أخذت تتلقَّن تلك الأشياء. كان عليهم أن ينسوا الملل والخوف واليأس وإحساسًا محزنًا بالذنب، كما كان عليهم أن ينسوا آمال الماضى العريضة. وعلى رغم ذلك فقد كان للرجلين عمل.

أما عواطف، فما كان لها من عمل. كانت تأكل حتى تتخم، وتنام حتى تملَّ الرقاد، وتقضى الساعات الطويلة فى الحديقة مستمتعة بشتى ألوان جمالها. وذكرت أنها باتت تنعم بالحياة التى تحسَّر عليها أدهم. ما أثقلها من حياة! وكيف تعد مطلبًا تذهب النفس حسرات عليه! لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجنًا ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء. لكنها ستلبث سجنًا مطوقًا بالكراهية، ولا مهرب منه إلا حول المجمرة! ومرة تأخر عرفة فى بيت الناظر فخطر لها أن تنتظره فى الحديقة. وتقدمت قافلة الليل وراء حادى القمر وهى جالسة تصغى إلى أنغام الغصون ونقيق الضفادع.

وانتبهت إلى صوت الباب وهو يفتح فاستعدت للقاء القادم، غير أن حفيف ثوب قادمًا من ناحية البدروم لفت إليه سمعها، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون أن تدرى بها. وتقدم عرفة كالمترنح فانتحت الخادمة ناحية الجدار الممتد من السلاملك فلحق بها، ثم رأتهما يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر.

انفجرت عواطف كما ينبغى لامرأة من حارة الجبلاوى. انقضت على الكائن المتلاحم كاللبؤة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلًا مترنحًا حتى اختلَّ توازنه فوقع، ثم أنشبت أظافرها فى عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحًا حتى مزق صراخها سكون الليل. وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة. وجاء حنش مهرولًا وفى أعقابه عدد من الخدم، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع أن يعود بعواطف إلى البيت وهى تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات. ومضى عرفة مترنحًا إلى المشربية المطلة على الخلاء وارتمى على شلتته وحيدًا فى الغرزة، ثم مد ساقيه وأسند رأسه إلى جدار وهو فى شبه غيبوبة. ولحق به حنش بعد فترةٍ قصيرة فاتخذ مجلسه أمامه حول المجمرة صامتًا، ورمقه بنظرةٍ سريعة ثم عاد ينظر إلى الأرض حتى قطع الصمت قائلًا: كان لا بد للفضيحة أن تقع.

فرفع إليه عينَين خجلتَين وقال ممعنًا فى الهرب: أَشْعِل النار!

ولبثا فى المشربية حتى قبيل الصباح. وذهبت الخادمة فحلَّت محلها أخرى. وبدا لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغرى بزلة بعد أخرى. وأخذت تُؤوِّل كل حركة تصدر عن زوجها تأويلًا سيئًا يتناسب مع ارتيابها حتى انقلبت الحياة جحيمًا. وفقدت العزاء الوحيد الذى كانت تتسلى به فى سجنها الملىء بالمخاوف. فلا البيت بيتها ولا الزوج زوجها. سجن بالنهار وماخور بالليل. وأين عرفة الذى أحبَّته؟ عرفة الذى تحدى بالزواج منها السنطورى، والذى عرَّض نفسه للهلاك مرات فى سبيل الحارة حتى ظنته رجلًا من رجال الرباب، ما هو اليوم إلا وغد، مثل قدرى ومثلما كان سعد الله. والحياة إلى جانبه عذابٌ مشتعل وخوفٌ مؤرق.

وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثرًا. وشهد البواب بأنه رآها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد. وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه: أين ذهبت يا ترى؟

فقال حنش بإشفاق: إن تكن فى الحارة فهى عند جارتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة.

فقال عرفة غاضبًا: المرأة لا تؤخذ باللين، هذه حكمة أهل حارتنا، فلأهملها حتى تعود بنفسها ذليلة!

لكنها لم ترجع، وانقضت عشرة أيام، فقرر عرفة أن يذهب ليلًا إلى أم زنفل متوخيًا ألا يشعر بذهابه أحد. وفى الميعاد المضروب تسلل من البيت متبوعًا بحنش. وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعا أقدامًا تتبعهما فالتفتا وراءهما فرأيا خادمين من خدم البيت، فقال

انقضت عواطف على الكائن المتلاحم كاللبؤة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلًا

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حى الرفاعية إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير

أولاد حارتنا..
المجد واللعنة

الشرفة

عرفة لهما: ارجعا إلى البيت.

فأجابه أحدهما: نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر.

تميز غيظًا لكنه لم يعقب. وساروا نحو ربع قديم فى حى قاسم، وصعدوا إلى طابقه الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل. طرق عرفة الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجه يعلوه النعاس. تبينت وجهه على ضوء مصباح صغير بيدها فقطبت متراجعة، فتبعها رادًا وراءه البَاب. واستيقظت أم زنفل فى ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادم. أما عواطف فقالت بحدة: ماذا جاء بك؟ ماذا تريد؟ ارجع إلى بيتك المبارك عليك.

وهمست أم زنفل بانزعاج وهى تحدق فى وجهه: عرفة الساحر!

وقال عرفة لزوجته دون أن يلقى بالًا إلى المرأة المنزعجة: اعقلى وتعالى معى.

فقالت بالحدة نفسها: لن أعود إلى سجنك، ولن أفرط فى راحة البال التى أجدها فى هذه الحجرة.

— لكنك زوجتى.

فارتفع صوتها وهى تقول: زوجاتك هناك بالخير والبركة!

وقالت أم زنفل فى نبرة احتجاج: اتركها لنومها وعد فى الصباح.

فرماها بنظرة قاسية دون أن يوجه لها كلمةً واحدة، ثم نظر إلى زوجته قائلًا: كل رجل وله زلة!

فهتفت: أنت نفسك زلة ولا كل الزلات.

فمال نحوها قليلًا وقال محركًا ألحان الرقة فى أوتار صوته: عواطف، أنا لا يمكن أن أستغنى عنك.

— لكنى أنا استغنيت!

فتساءل بامتعاض: تبيعيننى لغلطة أفلتت وأنا سكران؟

فهتفت بتشنج: لا تعتذر بالسُّكر، حياتك كلها أخطاء، وستحتاج إلى عشرات الأعذار لتبررها، ولن أجنى من ورائها إلا المتاعب والعذاب.

— هى على أى حال أفضل من الحياة فى هذه الحجرة!

فابتسمت ابتسامةً مريرةً ساخرة وتساءلت: مَن يدرى؟ خبرنى كيف تركك السجانون لتجىء إلىَّ؟

— عواطف!

فقالت بإصرار: لن أعود إلى بيت لا عمل لى فيه إلا التثاؤب ومعاشرة عشيقات زوجى الساحر العظيم.

وعبثًا حاول أن يثنيها عن إصرارها. قابلت لينه بالعناد، وغضبه بالغضب، وسبه بالسب، فارتد عنها يائسًا، ثم غادر المكان متبوعًا بصاحبه والخادمين. وسأله حنش: ماذا أنت فاعل؟

فقال بامتعاض وفتور: ما نفعله كل يوم.

وسأله قدرى الناظر: هل من جديد عن زوجك؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه إلى جانبه: عنيدة كالبغل- ربنا يحفظ مقامك!

فقال الناظر باستهانة: لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها!

وجعل يتفحص عرفة باهتمام، ثم سأله: هل تعرف امرأتك شيئًا من أسرار عملك؟

فبادره عرفة بنظرةٍ مُريبة ثم قال: السحر لا يعرفه إلا ساحر!

— أخشى أن...

— لا تخشَ شيئًا لا ظل له من الوجود.

وامتد الصمت ثوانى، فعاد يقول فى جزع: لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة!

فكظم الناظر غيظه، وابتسم، وأشار إلى الكأسين المترعتين داعيًا وهو يقول: مَن قال إن يدًا ستمتد إليها بسوء؟!

ولما توثقت الألفة بين قدرى وعرفة، جعل يدعوه إلى سهراته الخاصة التى تبدأ عادة عند منتصف الليل. شهد عرفة سهرةً عجيبة فى البهو الكبير، حفلت بكل ما لذَّ وطاب من مأكل ومشرب، ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفة أن يجن من الشراب والمنظر. فى تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود، مثل وحشٍ مجنون. ودعاه إلى سهرة فى الحديقة، فى خميلة يُحدق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر. وكان بين أيديهما فاكهة ونبيذ، وأمامهما مليحتان: إحداهما لخدمة المجمرة، والأخرى لخدمة الجوزة. وهبَّ نسيم الليل يحمل عرف الأزهار ونغم عود وأصواتًا تغنى:

يا عود قرنفل فى الجنينة منعنع

يعجب الجدعان الحشاشة المجدع.

كانت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملًا إذا مال غصن التوت الريان مع النسيم، أو يبدو أعينًا من الضياء خلال شبكة من الأغصان والأوراق إذا رجع الغصن إلى مستقره. وسرت من يد المليحة والجوزة نشوة إلى رأس عرفة فدار مع الأفلاك، وقال: رحم الله أدهم.

فقال الناظر باسمًا: ورحم الله إدريس، ماذا ذكرك به؟

— مجلسنا هذا!

— كان أدهم يحب الأحلام، ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوى فى رأسه.

ثم وهو يضحك: الجبلاوى الذى أرحته أنت من عذاب الكبر!

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونًا: لم أقتل فى حياتى إلا فتوة مجرمًا.

— وخادم الجبلاوى؟

— على رغمى قتلته.

فقال قدرى هازئًا: أنت جبان يا عرفة.

فهرب إلى القمر ينظر إليه خلال الغصون تاركًا الغرزة لأنغام العود. ثم جعل يسترق النظر إلى يد المليحة وهى ترص الحجر. وإذا بالناظر يهتف به: أين أنت يا ابن المذهول؟!

فالتفت نحوه باسمًا وهو يسأل: أتسهر وحدك يا حضرة الناظر؟

— لا أحد هنا يليق بمساهرتى.

— وحتى أنا لا سمير لى إلا حنش!

فقال قدرى باستهانة: عند درجة من السطول لا يهمك أن تكون وحدك.

تردد عرفة قليلًا ثم تساءل: ألسنا فى سجن يا حضرة الناظر؟

فقال الآخر بحدة: ماذا تريد ما دمنا مطوَّقين بأناس يمقتوننا؟!

وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته، فقال متنهدًا: يا لها من لعنة!

— احذر أن تفسد علينا صفونا.

فتناول الجوزة وهو يقول: لتصفُ الحياة إلى الأبد.

فضحك قدرى قائلًا: إلى الأبد؟ حسبنا أن نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى عمرنا بفضل سحرك!

فملأ صدره من عبير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال: من حسن الحظ أن عرفة لا يخلو من فوائد!

ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخانًا كثيفًا بدا مفضضًا فى ضوء القمر ثم قال بحسرة: لِمَ يدركنا الهرم؟ ألذ الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب العيش نهنأ به، لكن المشيب يزحف فى أوانه لا يرده شىء كأنه الشمس أو القمر.

— لكن أقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة!

— ثمة شىء تقف أمامه عاجزًا!

— ما هو يا سيدى؟

بدا الناظر حزينًا فى ضوء القمر، وتساءل: ما أبغض الأشياء إلى قلبك؟

لعله السجن الذى وضع فيه، لعلها الكراهية المحدقة به، لعله الهدف الذى تنكَّب عنه، لكنه قال: ضياع الشباب!

— كلا، لا خوف عليك من ذلك.

— كيف وزوجى غاضبة؟

— سيجدن دائمًا سببًا أو آخر للغضب.

واشتد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الغصون وتوهجت الجمرات فى المجمرة. وتساءل قدري: لماذا نموت يا عرفة؟

فرمقه بكآبة ولم ينبس فأردف الآخر: حتى الجبلاوى مات.

كأن إبرة انغرزت فى قلبه، لكنه قال: كلنا أموات وأبناء أموات.

فقال فى ضجر: لست فى حاجة إلى تذكيرى بما قلت.

— ليطل عمرك يا سيدى.

— طال أو قصر فالنهاية هى تلك الحفرة التى تعشقها الديدان.

فقال عرفة برقَّة: لا تدع الأفكار تكدر صفوك.

— إنها لا تفارقنى. الموت.. الموت.. دائمًا الموت، يجىء فى أى لحظة، ولأتفه الأسباب، أو بلا سبب على الإطلاق، أين الجبلاوى؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب؟ هذا قضاء ما كان ينبغى أن يكون.

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحبًا وعينيه تنطقان بالفزع، فبدا التناقض صارخًا بين حاله وبين مجلسه، فداخله قلق وقال برقَّة: المهم أن تكون الحياة كما ينبغى.

فلوح بيده غاضبًا وقال بحدة نعت الصفو نعيًا: الحياة كما ينبغى وأحسن، لا ينقصها شىء، حتى الشباب تعيده الأقراص، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل؟ كيف أنساه وهو يذكرنى بنفسه كل ساعة؟

سُرَّ لعذابه، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره، وتابع يد الحسناء بشوق وحنان، وتساءل فى سره: مَنْ ذا يضمن لى أن أرى القمر ليلةً أخرى؟ ثم قال: لعلنا فى حاجة إلى مزيد من الشراب!

— سنفيق فى الصباح.

وجد نحوه ازدراء. وظن أن ثمة فرصة متاحة فأراد أن يخطفها فقال: لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة فى أفواهنا!

فضحك الناظر ضحكةً ساخرة وقال: قول بالعجائز أجدر! هبنا استطعنا أن نرفع حياة أهل حارتنا إلى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيادنا؟

فهزَّ عرفة رأسه فى تسليم حتى خفت حدة الرجل، ثم قال: الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال.

— وحيث لا يوجد منها شىء يا أحمق.

فقال وهو يبتسم: نعم، لأنه مُعدٍ مثل بعض الأمراض!

فضحك الناظر قائلًا: هذا أغرب رأى تدافع به عن عجزك.

فقال متشجعًا بضحكة: نحن لا ندرى عنه شيئًا فلعله أن يكون كذلك، وإذا حسنت أحوال الناس قلَّ شره؛ فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرصًا على الحياة السعيدة المتاحة.

— ولن يجدى ذلك فتيلًا.

— بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت، بل سيعمل بالسحر كل قادر، هنالك يهدد الموت الموت.

وندت عن الناظر ضحكةٌ عالية، ثم أغمض عينَيه مستسلمًا للحلم. وتناول عرفة الجوزة وشد نفسًا طويلًا حتى اشتعل الحجر. وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون «طوِّل يا ليل» فقال قدري: أنت حشاش يا عرفة لا ساحر.

فقال عرفة ببساطة: بذلك نقتل الموت.

— لم لا تعمل أنت وحدك؟

— إنى أعمل كل يوم، ولكن ما أعجزنى وحدى أمامه!

واستمع الناظر إلى الغناء مليًا دون حماس ثم سأله: آه لو تنجح يا عرفة! أى شىء تفعله لو نجحت؟!

فقال وكأنما أفلت منه القول: أرد إلى الحياة الجبلاوى.

فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال: هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

فقطب عرفة متألمًا وغمغم بصوتٍ غير مسموع: آه لو تنجح يا عرفة!

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر. كان من السطل فى عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قَدماه. مضى ناحية بيته فى حارةٍ غارقة فى النوم مفروشة الأديم بضوء القمر. وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته- أمام باب البيت الكبير- اعترضه شبح لم يدرِ من أين أتى، وقال له فيما يشبه الهمس: صباح الخير يا معلم عرفة!

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث، لكن تابعيْه انقضَّا على الشبح وأمسكا به. وتفرس فيه فوضح لعينيه على رغم ذهولهما أنه شبح امرأةٍ سوداء مرتدية جلبابًا أسود يلفها من العنق حتى القدمين. أمر خادمَيه أن يتركاها فتركاها ثم سألها: ما لك يا ولية؟

فقالت بصوت أكد أنها سوداء: أريد أن أحدثك على انفراد.

— لمه؟

— مكروبة تشكو إليك كربها!

فقال بضجر وهو يهم بالذهاب: الله يحنن عليك.

فقالت بضراعةٍ نافذة: وحياة جدك الغالى إلا ما سمحت لى.

فحدجها بنظرةٍ غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه! تساءل: أين؟ ومتى رأى ذلك الوجه؟! وإذا بقلبه يخفق خفقة أطارت السطل من رأسه. هذا الوجه الذى رآه على عتبة حجرة الجبلاوى وهو مختفٍ وراء المقعد فى الليلة المشئومة! وهذه هى خادمة الجبلاوى التى كانت تشاركه حجرته! وركبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق فى وجهها فزعًا. وسأله أحد الخادمَين: نطردها؟

فخاطبهما قائلًا: اذهبا إلى باب البيت وانتظرا.

انتظر حتى ذهبا، فخلا لهما المكان أمام البيت الكبير، وراح يتفرس فى وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالى وذقنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها. وقال يطمئن نفسه: إنها من المؤكد لم تره تلك الليلة، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلاوي؟ وماذا جاء بها؟! وسألها: نعم يا ستي؟

فقالت بهدوء: لا شكوى لى، وإنما أردت أن أخلو إليك لأنفذ وصية!

— أى وصية؟!

فمال رأسها نحوه قليلًا وهى تقول: كنت خادمة الجبلاوى وقد مات بين يديَّ!

— أنت؟!

— نعم أنا فصدقنى.

ولم يكن فى حاجة إلى دليل فسألها بصوتٍ مضطرب: كيف مات جدنا؟

فقالت المرأة بنبرةٍ حزينة: اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه، وبغتة احتضر فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج! ذلك الجبار الذى دان له الخلاء!

زفر عرفة بصوتٍ حار كدر سكون الليل، وانخفض رأسه فى حزن كأنما يداريه عن ضوء القمر، وإذا بالمرأة ترجع إلى حديثها الأول قائلة: جئتك تنفيذًا لوصيته.

فرفع رأسه إليها مرتعشًا، متسائلًا: ماذا عندك؟ تكلمى.

فقالت بصوتٍ هادئ كنور القمر: قال لى قبل صعود السر الإلهى: «اذهبى إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه».

فانتفض عرفةً كالملدوغ وهتف بها: يا دجالة! ماذا تمكرين؟!

— سيدى، حفظتك العناية.

— خبِّرينى أى لعبة تلعبين؟

فقالت ببراءة: لا شىء غير ما قلت، والله شهيد.

فسألها بارتياب: ماذا تعرفين عن القاتل؟

— لا أدرى شيئًا يا سيدى، منذ وفاة سيدى وأنا طريحة الفراش، وأول ما فعلت بعد شفائى أن قصدتك.

— ماذا قال لك؟

— اذهبى إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه.

فقالَ عرفة بتحدٍّ: كاذبة! أنت تعرفين يا ماكرة أننى... (ثم مغيرًا نبرته) كيف عرفتِ بمكانى؟!

— سألتُ عنك أول ما جئت، فقالوا لي: إنك عند الناظر فلبثت أنتظر.

— ألم يقولوا لكِ إننى قاتل الجبلاوي؟!

فقالت بارتياع: ما قتل الجبلاوى أحد! وما كان فى وسع أحد أن يقتله.

— بل قتله الذى قتل خادمه.

فهتفت بغضب: كذب وافتراء، لقد مات الرجل بين يديَّ.

وجد عرفة رغبة فى البكاء لكنه لم يسفح دمعةً واحدة، ورنا إلى المرأة بطرفٍ منكسر، فقالت ببساطة: فوتك بعافية.

فسألها بصوتٍ غليظ متحشرج كأنه صوت ضميره المعذب: أتقسمين على أنك صادقة فيما قلتِ؟

فقالت بوضوح: أقسم بربى وهو شهيد.

ومضت وألوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب. وفى حجرة نومه سقط مغشيًا عليه. وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعبًا لحد الموت فنام، لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم أيقظه القلق الباطنى. ونادى حنش فجاءه الرجل، فقصَّ عليه قصة المرأة والآخر يحملق فى وجهه كالمنزعج، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلًا: هنيئًا لك سطل الأمس.

ففغض عرفة وهتف به: لم يكن ما رأيت سطلًا، ولكن حقيقة لا شك فيها.

فقال حنش برجاء: نم، أنت فى حاجة إلى نومٍ عميق.

— ألا تصدقنى؟

— كلا طبعًا، وإذا نمتَ كما أودُّ واستيقظت بعد حين فلن تعود إلى هذه القصة.

— ولم لا تصدقنى؟

فضحك قائلًا: كنت فى النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتك. وقفت قليلًا أمام باب البيت الكبير ثم واصلت السير يتبعك خادماك!

فوثب عرفة واقفًا وهو يقول بظفر: إلىَّ بالخادمين.

فأشار حنش إليه محذرًا ثم قال: كلا، وإلا شكَّا فى عقلك.

فقال بإصرار: سأستشهد بهما على مسمع منك.

فقال حنش متوسلًا: لم يبقَ لنا إلا شىء من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده.

فلاحت فى عينى عرفة نظرةٌ جنونية، وراح يقول ذاهلًا: لست مجنونًا، وليس هو بالسطل! مات الجبلاوى وهو عنى راض.

فقال حنش بعطف: فليكن، ولكن لا تدعُ أحدًا من الخدم.

— إذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك.

فقال بحلم: لا سمح الله، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها، أين ذهبت؟

فقطب متذكرًا، ثم قال بإشفاق: نسيت أن أسألها عن مسكنها!

— لو كان حقيقة ما رأيت لما تركتها تذهب!

فهتف عرفة بإصرار: كان حقيقة، لست مجنونًا، وقد مات الجبلاوى وهو عنى راض.

فقال حنش بعطف: لا تجهَد نفسك فأنت فى حاجة إلى الراحة.

واقترب منه فربت رأسه، وبحنو دفعه نحو الفراش، وما زال به حتى أرقده. أغمض الرجل عينيه إعياءً، وما لبث أن نام نومًا عميقًا.

قال عرفة بهدوء وتصميم: قررت أن أهرب.

فدهش حنش دهشة فوق ما يطيق حتى توقفت يداه عن العمل. ونظر بحذر فيما حوله، وعلى الرغم من أن حجرة العمل كانت مغلقة فإنه بدا خائفًا. ولم يكترث عرفة لدهشته، ولم تكفَّ يداه عن العمل، وراح يقول: هذا السجن لم يعد يمدنى إلا بأفكار الموت، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وكأننى أشم رائحة القبور فى أصص الأزهار.

فقال حنش بقلق: لكن الموت نفسه ينتظرنا فى الحارة.

— سنهرب بعيدًا عن الحارة.

ثم وهو ينظر فى عينى حنش: وسنعود يومًا لننتصر.

— إذا استطعنا الهرب!

— اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب.

> شهد عرفة سهرةً عجيبة فى البهو الكبير حفلت بكل ما لذَّ وطاب من مأكل ومشرب

> وجد عرفة رغبة فى البكاء لكنه لم يسفح دمعةً واحدة ورنا إلى المرأة بطرفٍ منكسر فقالت ببساطة: فوتك بعافية

عرفة

وواصلا العمل مليًا فى صمت، ثم تساءل عرفة: أليس هذا ما كنت تود؟!

فتمتم حنش فى حياء: كدت أنسى.. ولكن خبِّرنى ما الذى دعاك اليوم إلى هذا القرار؟

ابتسم عرفة وهو يقول: إن جدى أعلن رضاءه عنى على رغم اقتحامى بيته وقتلى خادمه.

فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل: أتغامر بحياتك لحلم رأيته فى السطل؟

— سمِّه بما تشاء، لكنى واثق من أنه مات وهو عنى راضٍ. لم يغضبه الاقتحام ولا القتل، لكن لو اطلع علىَ حياتى الراهنة لما وسعته الدنيا غضبًا.

ثم بصوتٍ خافت: لذلك نبهنى بلطف إلى سابق رضاه!

فقال حنش وهو يهزُّ رأسه عجبًا: لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام.

— كان ذلك فى الزمان الأول وأنا كثير الارتياب، أما وقد مات فحق للميت الاحترام.

— الله يرحمه.

— وهيهات أن أنسى أننى المتسبب فى موته؛ لذلك فعلىَّ أن أعيده إلى الحياة إذا استطعتُ، وإن تيسر لى النجاح فلن نعرف الموت.

فرمقه حنش بأسًى وقال: لم يسعفك السحر حتى اليوم إلا بأقراص منشطة وقارورة مهلكة!

— نحن نعرفُ من أين يبدأ السحر؟ لكن لا نستطيع أن نتخيل أين ينتهى؟

وأجال بصره فى الحجرة قائلًا: سنُتلف كل شىء إلا الكراسة يا حنش، فهى كنز للأسرار، وسأجعلها فوق صدرى، ولن نجد الهرب عسيرًا كما تتوهم.

ومضى عرفة كعادته مساءً إلى بيت الناظر. وقبيل الفجر عاد إلى بيته. وجد حنش مستيقظًا فى انتظاره فلبثا فى حجرة النوم ساعة حتى يطمئنا إلى نوم الخدم. وتسللا معًا إلى السلاملك فى خفة وحذر. وكان شخير الخادم النائم فى شرفة السلاملك يتصاعد فى انتظام، فهبطا السلم، واتجها نحو الباب. ومال حنش إلى فراش البواب فرفع بيده هراوة وهوى بها عليه لكنها أصابت جسمًا قطنيًا فارغًا وأحدثت صوتًا مزعجًا فى سكون الليل.

ثبت لهما أن البواب ليس فى فراشه. وخافا أن يكون الصوت قد أيقظ أحدًا فلبثا وراء الباب بقلبٍ خافق. ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنش فى أثره. وردَّا الباب وسارا لصق الجدران نحو ربع أم زنفل يخترقان ظلمةً صامتة. واعترضهما فى منتصف الحارة كلبٌ رابض فوقف مستطلعًا، وجرى نحوهما متشمِّمًا، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب. ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همسًا: ستنتظرنى هنا، وإذا رابك شىء فصفِّر لى واهرب إلى سوق المقطم.

دخل عرفة الربع فاجتاز الدهليز إلى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل، ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهى تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة: أنا عرفة، افتحى يا عواطف.

ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباحٍ صغير بيدها. قال مباشرة: اتبعينى، سنهرب معًا.

وقفت تنظر إليه فى ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل، فقال: سنهرب من الحارة، سنعود كما كنا، أسرعى.

ترددت قليلًا، ثم قالت بنبرة لم تخلُ من غيظ: ما الذى ذكَّرك بى؟

فقال بلهفة ولهوجة: دعى الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها!

وإذا بصفير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف فى فزع: الكلاب! ضاعت الفرصة يا عواطف.

وثب إلى رأس السلم فرأى فى فناء الربع أضواءً وأشباحًا فارتد يائسًا، وقالت عواطف: ادخل.

فقالت أم زنفل بخشونة دفاعًا عن نفسها: لا تدخل.

— وما فائدة الدخول؟

وأشار إلى نافذةٍ صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة: علام تطل؟

— المنور.

فاستخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحنيًا عن سبيله أم زنفل، ثم رمى بها. وغادر المسكن مسرعًا فأغلق الباب وراءه. وصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح وثبًا. أطلَّ من فوق السور على الحارة فرآها تعج بالأشباح والمشاعل. وترامت إلى أذنيه ضجة الصاعدين إليه. وجرى إلى السور الملاصق للربع المجاور من ناحية الجمالية فرأى أشباحًا تسبقه إليه وراء حامل مشعل. ارتد إلى السور الآخر الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه أنوار مشاعل قادمة! وتملَّكه يأسٌ خانق. وخيل إليه أنه سمع صراخ أم زنفل. ترى هل اقتحموا مسكنها؟ هل قبضوا على عواطف؟ وإذا بصوت عند باب السطح يصيح به: سلم نفسك يا عرفة!

وقف مستسلمًا دون أن ينبس بكلمة. لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال: إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات!

فقال: لا شىء معى.

انقضُّوا عليه فطوَّقوه. ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذى اقترب منه وصاح به: يا مجرم.. يا لئيم.. يا كافرًا بالنعمة.

وفى الحارة رأى رجلَين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتوسلٍ حار: دعوها فلا شأن لها بى.

لكن لطمةَ الموت هوت على صدغه فأسكتته.

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدَى اليدَين إلى ظهرَيهما. انهال الناظر لطمًا على وجه عرفة حتى كلَّت يداه وصاح به: كنت تنادمنى وأنت مبيِّت الغدر يا ابن الزانية!

فقالت عواطف بأعينٍ دامعة: ما جاءنى إلا ليصالحنى!

— فبصق الناظر على وجهها وصاح: اخرسى يا مجرمة.

فقال عرفة: إنها بريئة ولا ضلع لها فى شىء.

— بل شريكتك فى قتل الجبلاوى وسائر جرائمك.

ثم وهو يهدر: أردت الهرب وسأهريك من الدنيا كلها.

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين. دفعوا عواطف؛ فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدمَيها وأدخلوها فى الجوال وهى تصرخ ثم ربطوا فوهته ربطًا محكمًا. وصاح عرفة بانفعالٍ جنونى: اقتلنا كما تشاء، سيقتلك الحاقدون غدًا.

فضحك الناظر ضحكةً باردة وقال: عندى من القوارير ما يحمينا إلى الأبد.

فصاح عرفة: حنش هرب، بكل الأسرار هرب، وسوف يعود يومًا بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك.

فركله فى بطنه فسقط يتلوى. وانقضَّ عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجًا، ومضوا بهما نحو الخلاء. وما لبثت عواطف أن أُغمى عليها، ولكن بقى هو يعانى العذاب. إلى أين يسيرون بهما؟ وماذا أعدوا لهما من ألوان الموت؟ أيقتلونهما ضربًا بالنبابيت؟ بالأحجار؟ بالنار؟ أم رميًا من فوق الجبل؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الآلام! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا المأزق الخانق مخرجًا. إن رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يختنق. ولم يعد له من أمل فى الراحة إلا بالموت. سيموت وتموت الآمال، وربما عاش طويلًا ذو القهقهة الباردة. وسيشمت به الذين ودَّ لهم الخلاص. ولن يدرى أحد ماذا سيفعل حنش. والرجال الذين يحملونه إلى الموت صامتون، لا تَندُّ عن أحدهم كلمة، فليس ثمة إلا الظلام، وليس وراء الظلام إلا الموت، وخوفًا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شىء وجاء الموت. الموت الذى يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجىء. لو رُد إلى الحياة لصاح بكل رجل: لا تخف.. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة. ولستم يا أهل حارتنا أحياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت.

وقال رجل من القتلة: هنا!

فقال آخر من القتلة معترضًا: هناك الأرض طرية.

ارتعد قلبه على الرغم من أنه لم يفهم للكلام معنًى، لكنها كانت لغة الموت على أى حال. واشتد به العذاب المتوقع حتى أوشك أن يصيح بهم أن اقتلونى، ولكنه لم يفعل. وفجأة هوى الجوال إلى الأرض فشهق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقرى. وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاض النبابيت أو ما هو أفظع. ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت. وسمع يونس وهو يقول: احفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح.

لمَ يحفرون القبر قبل القتل؟ وخيل إليه أنه يحمل المقطم فوق صدره. وسمع أنينًا ما لبث أن ميز فيه نبرة عواطف فندَّت عن جسده المقيد حركةٌ عنيفة. ثم ملأت دقات الحفر أذنيه! فعجب من غلظة أكباد الرجال. وإذا بيونس يقول: سيُلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يُهال عليكما التراب دون أن يمسَّكما إنسان بسوء!

فصرخت عواطف على رغم إعيائها، وهتفت أعماقه بلغة لم يدرها أحد. ورفعتهما أيدٍ شديدة، ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب، وارتفع الغبار فى الغسق.

انتشر خبر عرفة فى الحارة. لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية، ولكن بالتخمين عرفوا أنه أغضب سيده فدفعه هذا إلى مصيره المحتوم. وذاع حينًا ما أن عرفة قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل به سعد الله والجبلاوى. وفرح الجميع لقتله على رغم مقتهم للناظر، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم، فرحوا لمقتل الرجل الذى قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحًا رهيبًا يستذلهم به إلى الأبد! وبدا المستقبل قاتمًا أو أشد قتامة مما كان بعد أن تركزت السلطة فى يدٍ واحدةٍ قاسية، واختفى الأمل فى أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضى إلى إضعافهما معًا ولجوء أحدهما إلى أهل الحارة. وبدا أنه لم يبقَ لهم إلا الخضوع، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلامًا ضائعة قد تصلح ألحانًا للرباب لا للمعاملة فى هذه الحياة.

ويومًا اعترض رجل أم زنفل وهى ذاهبة إلى الدرَّاسة فحياها قائلًا: مساء الخير يا أم زنفل.

فرمقته بنظرةٍ متفحصة فما عتمت أن قالت بدهشة: حنش؟!

فاقترب منها باسمًا ثم سألها: ألم يترك المرحوم شيئًا فى مسكنك ليلة القبض عليه؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه: لم يترك شيئًا! رأيته يرمى بأوراق إلى المنور، فتسللت إليه فى نهار اليوم التالى فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فايدة منها ولا عايدة فتركتها ورجعت.

ائتمعت عينا حنش بنورٍ عجيب وقال برجاء: مدى لى يدك حتى أعثر على الكراسة.

فأجفلت العجوز وهى تهتف: ابعدوا عنى، لولا رحمة ربنا لهلكت فى المرة الماضية.

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها، وواعدها آخر الليل حين تنام العيون. وفى الموعد المضروب تسلل بإرشادها إلى أسفل المنور. وأشعل شمعة، وجلس القرفصاء بين أكوام الزبالة وراح يفتش على كراسة عرفة. فرز الأكوام ورقة ورقة وخرقة خرقة، وتخللت أصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسَّل وفتات الأطعمة المنتنة، لكنه لم يعثر على ضالته. وصعد إلى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب: لم أجد شيئًا.

فهتفت المرأة ساخطة: لا شأن لى بكم! إنكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب.

— حلمك يا أمى!

— لم تترك لنا الأيام حلمًا ولا عقلًا، خبِّرنى ماذا يهمك فى تلك الكراسة؟

فتردد حنش قليلًا ثم قال: إنها كراسة عرفة.

— عرفة! الله يسامحه. قتل الجبلاوى، ثم أعطى الناظر سحره وذهب.

فقال حنش بحزن: كان من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خانه، كان يريد لكم ما أراد جبل وعرفة وقاسم، بل وأحسن مما أرادوا.

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب، ثم قالت بغية التخلُّص منه: لعل الزبَّال أخذ الزبالة التى تركت الكراسة فيها، ففتش عنها فى مستوقد الصالحية.

وذهب حنش إلى مستوقد الصالحية وسأل عن زبَّال حارة الجبلاوى، ثم سأله عن زبالة الحارة، فسأله الرجل: تبحث عن شىء ضائع! ما هو؟

— كراسة!

فلاحت فى عين الزبَّال نظرةٌ مريبة، لكنه قال وهو يشير إلى ركن فى الحجرة الملاصقة للحمَّام: أنت وحظك، فإما تجدها عندك وإما تكون فى النار.

ومضى حنش يفتش فى الزبالة بصبر وأمل. لم يبقَ له من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسة. هى أمله وأمل الحارة. قُتِل عرفة السيئ الحظ مغلوبًا على أمره، لم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الآمال فى الحارة المتجهمة. وإذا بالزبال يسأله: ألم تعثر على مطلوبك؟

— أمهلنى ربنا يكرمك.

فهرش الرجل إبطيه متسائلًا: ما أهمية الكراسة؟

فقال حنش دفعًا للقلق الذى انتابه: فيها حسابات المحل وستراها بنفسك!

وواصل بحثه على رغم تزايد مخاوفه، حتى سمع صوتًا غير غريب عنه يقول: أين قدرة الفول يا متولى؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحارة. لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل فى جزع: ترى هل لمحه الرجل؟ وهل يحسن به أن يهرب؟ وزادت سرعة يديه فى التفتيش حتى بدا كالأرنب الذى يحفر مأوًى له.

وعاد عم شنكل إلى الحارة ليقول لكل من يصادفه: إنه رأى حنش رفيق عرفة فى مستوقد الصالحية مكبًا على التفتيش فى الزبالة عن كراسة كما أخبره الزبال. وما إن بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبت قوة من الخدم إلى المستوقد، ولكنها لم تجد لحنش أثرًا. ولما سُئل الزبال قال: إنه ذهب لبعض شأنه، ولما عاد كان حنش قد ذهب، ولم يدرِ إن كان عثر على ضالته أم لا.

ولا يدرى أحد كيف أخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بأن الكراسة التى أخذها حنش ما هى إلا كراسة السحر التى أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت فى أثناء محاولته الهرب فحملت فى الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها حنش.

وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيُتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة؛ لينتقم من الناظر شر انتقام. وأكدت الأقوال والظنون أن الناظر وعد من يجىء بحنش حيًا أو ميتًا بمكافأةٍ كبيرة كما أعلن ذلك رجاله فى المقاهى والغرز. فلم يعد أحد يشك فى الدور المنتظر أن يلعبه حنش فى حياتهم. وارتفعت فى الأنفس موجة استبشار وتفاؤل قذفت بعيدًا بزبد القنوط والخنوع. وامتلأت القلوب عطفًا على حنش فى مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذكرى عرفة نفسه. وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش فى موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرًا لهم ولحارتهم، وضمانًا لحياة خير وعدالة وسلام. وصمموا على التعاون ما وجدوا إليه سبيلًا باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص، إذا كان من المُسلَّم به أنه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التى يحوزها الناظر إلا بقوةٍ مثلها مما قد يعدها حنش.

ونمى إلى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى إلى شعراء المقاهى أن يتغنوا بقصة الجبلاوى، وبخاصة مقتله بيد عرفة، وكيف أن الناظر اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفًا من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقامًا للجد الكبير.

ومن عجب أن تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية، وبلغ بهم العناد أن قالوا: «لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفة، ولو خُيِّرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر».

ويومًا بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس. لعلها تسربت من ربع أم زنفل التى علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد إقامتها عندها. ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عند مقابلته فى الأماكن النائية. المهم أن الناس عرفوا الرجل، وما كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياةٍ عجيبة كالأحلام الساحرة. ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب فأكبروا ذكراه ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء جبل ورفاعة وقاسم. وقال أناس: إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوى كما ظنوا. وقال آخرون: إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلاوى. وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حى لنفسه.

وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعًا، وقيل فى تفسير اختفائهم: إنهم اهتدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه، وإنه يعلمهم السِّحْر استعدادًا ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله، فبثوا العيون فى الأركان، وفتشوا المساكن والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات، وانهالوا بالعصىِّ للنظرة أو النكتة أو الضحكة، حتى باتت الحارة فى جوٍّ قاتم من الخوف والحقد والإرهاب. لكن الناس تحملوا البغى فى جَلد، ولاذوا بالصبر، واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلما أضرَّ بهم العسف قالوا: لا بُدَّ للظلم من آخِر، ولليل من نهار، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب.

لا شأن لنا بالماضى ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفة ولو خُيِّرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر

انقضُّوا عليه فطوَّقوه ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذى اقترب منه وصاح به: يا مجرم.. يا لئيم.. يا كافرًا بالنعمة

حرف

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

18

الأربعاء
26 أغسطس 2026
13 ربيع الأول 1448
20 مسرى 1742

المستشار الفنى: عيد رحيل

مدير التحرير: محمود الشهاوى
الإخراج الفنى: محمد جلال فراج
سكرتير التحرير: بيجاد سلامة
الديسك: كرم منصور
التصحيح: وائل فصيح
مدير الإنتاج: رائف درويش

هذه الرواية اتهمت ظلمًا أنها تقتل القيم الروحية فى وقت هى فيه رواية تبحث عن القيم الروحية، ولا أريد أن أذكر بحيثيات جائزة نوبل كى لا أتهم أننى أردد وجهة نظر الغرب، ولكن لا بأس من أن أذكر أن الفقرة الأخيرة فى هذه الحيثيات تقول إن هذه الرواية تناول صاحبها بحث الإنسان الدءوب عن القيم الروحية، وهذا تقدير جاء من الأغراب، أليس هذا شيئًا محزنًا، إن هذه الرواية ليست مصادرة إلا فى مصر، وهى فى الوقت نفسه متداولة شرقًا وغربًا فى البلاد الإسلامية فى المشرق والمغرب، وفى البلاد الغربية فى أقصى الغرب، وفى هذه المساحات الشاسعة على الكرة الأرضية، فى الجهات الأربع لم يعترض عليها مسلم واحد سواء من المسلمين العاديين أو المتخصصين.

نجيب محفوظ